الإصدار: 63

روافد

التراث العمراني للمدينة الإسلامية

د. خالد عزب



يهدى ولا يباع



التــراث العمــراني
للمدينة الإســلامــيــة

د. خالد عزب

الإصدار: 63 (مارس 2013م / ربيع الثاني 1434هـ)

الإخراج الفني: محمود محمد أبو الفضل

د. خالد عزب

من مواليد مصر، حاصل على الدكتوراه بكلية الآثار بالقاهرة ، يعمل بمكتبة الأسكندرية مديرا لإدارة المشروعات وقائما بأعمال مدير مركز المخطوطات ورئيس تحرير لمجلة «أبجديات» ، كما يعمل مديرا لتحرير مجلة «مشكاة» بالمجلس الأعلى للآثار ، ويشغل عضوية العديد من المؤسسات والجمعيات...

له إنتاج علمي غزير يشمل الدراسات والبحوث والمشاركات العلمية بالمؤتمرات والندوات المحلية والدولية ، وله عشرات المؤلفات منها: «مشكلة المياه وحلولها في التراث الإسلامي»، و«فقه العمارة الإسلامية» ، و«تخطيط وعمارة المدن الإسلامية» وغيرها...



نهـر متعـدد... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى – دولة الكويت

مارس 2013 م / ربيع الثاني 1434هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

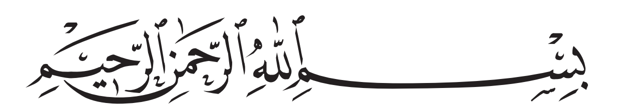
رقم الإيداع بمركز المعلومات: 2012 / 124

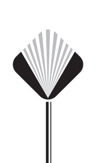
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2012 / 541

ردمك: 978-99966-50-70-3

فهرس المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

شكلت المدينة الإسلامية، في تحققها الحضاري التاريخي، مادة خصبة للعديد من الدراسات والبحوث، وألف حولها كثير من المؤلفات بمختلف اللغات، وذلك أن تلك المدينة تميزت بالعديد من الخصائص على مستوى التصميم الهندسي العام، وهندسة المفردات والمكونات الفرعية مثل المساجد والأسواق والمدارس والبيوت والمنتزهات العامة والبيمارستانات ،وغيرها من المرافق الضرورية لحياة الناس.

وأهم ما يميز كتاب الباحث الدكتور خالد عزب أنه يرصد العديد من الخصائص المميزة للتراث العمراني بالمدينة الإسلامية، مع ما يقتضيه السياق من رسوم وصور ومخططات، فجاء كتابه بمثابة «الدليل» الإرشادي الذي يساعد القارئ على تحصيل معلومات دقيقة عن مواصفات المدينة الإسلامية ، كما أن الكتاب يمثل دعوة علمية إلى تجديد النظر في إشكالية طمس ملامح تلك المدينة في التكدس العمراني المعاصر بمختلف مدن العالم الإسلامي وحواضره، واستشراف صورة إيجابية عن دمج القيم الفنية والعمرانية للمدينة الإسلامية في النسيج العمراني العام، والتي من شأنها أن تعيد للإنسان المسلم وغيره الإحساس بمحوريته وهويته وانسجامه مع محيطه النفسي والبيئي والاجتماعي.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء والمهتمين، إسهاما منها في إبراز القيم الفنية والحضارية للعمارة الإسلامية.

والله نسأل أن ينفع به، و يجزي مؤلفه خير الجزاء.

إنه نعم المولى ونعم المجيب...



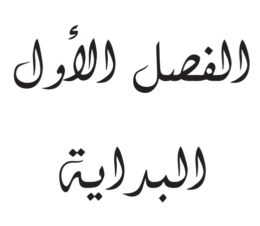
مقدمة

مثلت المدينة الإسلامية صورة صادقة للحضارة الإسلامية مازالت بقاياها قائمة إلى الآن نراها متناثرة في العديد من المدن الإسلامية من بخارى وسمرقند في شرق العالم الإسلامي إلى فاس ومراكش في غرب العالم الممتد، ويأتي هذا الكتاب ليرصد ملامح المدينة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ ومكوناتها وحاضرها ومستقبلها، وذلك في أربعة فصول، أبرزت فيها تراث هذه المدن وخصائصها، وكيفية توظيفه في تخريج مهندس المستقبل وفى تربية النشء، إنه محاولة للربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، مبرزًا من أين انطلق الماضي؟! ومبينًا نكبة الحاضر؟ ومثيراً تساؤلات عديدة حول المستقبل؟

وأنا أعلم يقينًا إن مثلى لا يعطى هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظرًا لقلة البضاعة، وسعة الموضوع، ولكني بذلت جهد المقل، واجتهدت أن أصل به إلى الصورة التي تليق به، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولًا وآخرًا، وإن كنت قد أخطأت، فحسبي أنى بذلت طاقتي ووضعت لبنة في طريق من يريد إكمال البناء.

وأخيرًا أتقدم بخالص الشكر إلى كل من ساعدني على إنجاز هذا العمل وأخص منهم: منظمة العواصم والمدن الإسلامية بمكة المكرمة، ومعهد إنماء المدن بالرياض، ومركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باسطنبول، والدكتور وليد المنيس أستاذ الجغرافيا بجامعة الكويت.





الفصل الأول

البداية

كانت بداية المدينة الإسلامية مع هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وهي موطن الاستقرار الذي باشر منه دعوته لنشر هذا الدين العظيم، وقد قام بتحديد الوظائف الأساسية للمكان الذي اختاره والتي لا يقوم الدين إلا بها، وهو ما يعني إعادة صياغة المكان صياغة إسلامية، هذه الصياغة وضحت لنا عناصر المدينة الإسلامية، وهي مستقاة من سيرة النبي ﷺ عند نزوله المدينة وسنوردها تباعًا كما دلت عليها الروايات الصحيحة.

- المسجد أول البناءات

بعد دخول رسول الله ﷺ المدينة، بركت ناقته عند موضع مسجده، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربدًا[1] لسهل وسهيل[2] وهما غلامان يتيمان من الأنصار، قام رسول الله ﷺ فيه فقالا: نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان فيه شجر غرقد، ونخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالنخيل والشجر فقطعت، وصفت في قبلة المسجد، وجعل طوله. مما يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع، ثم بَنَوْهُ باللبن وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وقال الحافظ الذهبي: هذه القبلة كانت في شمال المسجد، لأنه عليه السلام صلى سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، فلما حولت القبلة بقي

١- المربد والبيدر والجرين : الموضع الذي يجعل فيه الزرع والتمر .

٢- شهد سهيل بدرًا والمشاهد كلها ومات في خلافة عمر بن الخطاب (السهيلى الروض الأنف على سيرة ابن هشام مطبعة الجمالية القاهرة ١٣٣٢هـ ، شهد سهل بدرًا وشهد غيرها ومات قبل سهيل، ص ١٣ جـ ٢) .

حائط القبلة الأولى لأهل الصفة[1]، وجعل له ثلاثة أبواب، باب في مؤخرته، وباب يقال له باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل عُمُده الجذوع، وسقفه بالجريد[2].

ويستخلص من ذلك أن أول وظيفة أحياها رسول الله ﷺ في المكان- وظيفة المسجد-الذي كان بمثابة مركزًا للصلاة والعبادة، إضافة إلى كونه مركزًا سياسيًا واجتماعيًا وحضاريًا وملتقى علميًا، هذه الوظائف التي كان يؤديها المسجد جعلت مكانته أكثر من كونه للعبادة لأن الأرض كلها قد جعلت لرسول الله ﷺ طهورًا ومسجدًا كما ورد في الحديث[3]

ونستطيع أن نرى في بناء مسجد المدينة دروسًا معمارية مستوحاة من هدى النبي ﷺ.

الدرس الأول: وهو قاعدة هامة عند اختيار الأراضي التي تبنى عليها المساجد وكانت ذات ملكية خاصة فيجب أن تؤخذ موافقة أصحابها، وأن يتم تقدير ثمنها دون بخس، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

الدرس الثاني: في تجهيز الموقع وإعداد مواد البناء، فلقد كان بالأرض عند شرائها نخيل وقبور، فأمر بالنخيل أن تقطع وبالقبور أن تنقل وأن يغيبوا العظام الموجودة بها، وفى نفس الوقت أمر البنائين أن يضربوا اللبن وهو الطوب الذي سوف يستخدم في بناء حوائط المسجد، وبذلك نجده لم ينتظر حتى يتم إعداد الأرض ثم يأمر بتجهيز اللبن، والذي يحتاج لبعض الوقت ليجف ويصبح صالحًا للبناء، وكل ذلك من أجل كسب الوقت، وهذا

١- الصفة المكان المظل وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين، ولم يكن لهم منازل يسكنون فيها وكانوا يأوون إلى موضع مظل في المسجد

٢- نقلًا عن: محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي ص ٢٢٣، ٢٢٤ ط ٢ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

٣- د. وليد عبد العزيز المنيس، المنهاج في إحياء التمدن الإسلامي، ص ٢٦ رسالة علمية (١١٠) نشر الجمعية الجغرافية الكويتية جمادى الآخرة ١٤٠٨، فبراير ١٩٨٨ .

هو نفس الأسلوب المتبع في عصرنا الحديث عند وضع الجداول الزمنية لتنفيذ عناصر المشروع المختلفة، حيث يمكن عمل مرحلتين أو أكثر في وقت واحد إن أمكن ذلك أو أن يشتركا في جزء من الوقت مما يوفر في المدة الإجمالية لتنفيذ المشروع.

الدرس الثالث: يعطيه لنا رسولنا الكريم وصحابته وهم يشاركون بأنفسهم في بناء المسجد باستخدام المواد المتوفرة في بيئة المدينة المنورة فاللبن للحوائط، وجذوع النخل كأعمدة، وجريد النخل في تسقيف المسجد، مما يعطي درسًا هامًا في أهمية استعمال مواد البيئة، والمشاركة الشعبية في بناء المشروعات في البيئات الفقيرة كما فعل الصحابة ورسولنا الكريم.

وقد أعطى الكتاني[١] وصفًا لطريقة بناء اللبن في حوائط المسجد النبوي حيث بناه الرسول ﷺ ثلاث مرات. الأولى: بالسميط وهو لبنة أمام لبنة، والثانية: بالضفرة وهي لبنة ونصف في عرض الحائط، والثالث، بالأنثى والذكر وهما لبنتان تعرض عليهما لبنتان[٢] وبذلك نرى اختلاف أسلوب البناء لما كثر عدد المسلمين، وتمت زيادة مساحة المسجد مما يدل على أهمية تطويع أسلوب البناء ليخدم وظيفة المسجد، أو أي مبنى فكلما كثر عدد المستعملين زاد الاهتمام بمتانة البناء.

الدرس الرابع: يعطيه لنا رسول الله ﷺ حينما أقر فعل تميم الداريّ حينما أسرج المسجد النبوي بالقناديل[٣]، وبذلك فإن رسول الله يشجع أي عنصر معماري جديد يمكن أن يضاف إلى المسجد ويسهل من أداء وظيفته والتيسير على مستخدميه من المصلين.

١- الكتانى، الشيخ عبد الحي، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية . نشر دار الكتاب العربي، بيروت .

٢- المصدر السابق، ص ٧٧ .

٣- المصدر السابق، ص ٨٦ .

وهذه الدروس نستطيع أن نجملها في جملة واحدة وهي: إن عمارة المسجد النبوي تعبر عن البساطة والتلقائية، التي يدعوا إليها جهابذة العمارة في عصرنا الحاضر، وهذه الدروس والمفاهيم – وغيرها كثير – المستوحاة من عمارة المسجد النبوي، توضح أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم هو المعلم الأول للمسلمين في جميع المجالات، ويعطيهم النموذج والأساس ويترك لهم الابتكار والإبداع، حسب الزمان والمكان وقد صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾[1].

- المسكن:

ثم باشر رسول الله ﷺ تحديد وظائف المدينة من الداخل فبنى مساكنه إلى جوار المسجد، قال الكتاني في التراتيب: «ثم بنى ﷺ مساكنه إلى جنب المسجد باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريد، وكان محيطها مبنيًا باللبن وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية، وجعل لها أبواباً ونوافذ متقنة الهواء داعية إلى السهول في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفر الزمن والسرعة إلى المقصد»[2] .

وعن هدي رسول الله ﷺ في تدبيره لأمر المسكن يقول ابن قيم الجوزية: «لما علم ﷺ أنه على ظهر سير، وأن الدنيا مرحلة مسافر ينزل فيها مدة عمره، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة، لم يكن من هديه وهدي أصحابه، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها، وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقي الحر والبرد، وتستر عن العيون، تمنع من ولوج الدواب، ولا يخاف سقوطها بفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام

١- سورة الأحزاب آية ٢١ .

٢- الكتانى المصدر السابق، ص ٧٨ .

بسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤذى ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلها حرًا وبردًا، ولا تضيق عن ساكنها، فينحصر، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة، فتأوي الهوام في خلوها، ولم يكن فيها كنف تؤذي ساكنها برائحتها، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يحب الطيب، ولا يزال عنده، وريحه هو من أطيب الرائحة، وعرفه من أطيب الطيب، ولم يكن في الدار كيف تظهر رائحته، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن، وحفظ صحته»[1].

وفى هذا العرض الموجز عرض لنا ابن القيم الشروط التي يجب توافرها في المنزل الإسلامي، وهي: البساطة – التلقائية – الخصوصية – التوافق مع البيئة – وهي شروط لا تتوافر في الكثير من العمارات والناطحات السكنية التي انتشرت بشدة في مدن العالم الإسلامي، حيث درج المسلمون في العصر الحديث على نقل كل ما هو غربي دون وعي.

ولم تكن هذه الشروط نظرية، بل دخلت حيز التطبيق فنرى المنازل في صدر الإسلام تفي بالضرورات ولا تمتد إلى الكمالات مما لا حاجة له، أخرج البخاري في صحيحه، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وقد بنيت بيتًا بيديّ يكنني من المطر ويظلني من الشمس وما أعانني عليه أحد من خلق الله»[2].

وكان للأصول السكانية والقبلية شأن كبير في توزيع السكان في أحياء المدينة، إذْ كان كل حي تقطنه أسرة أو قبيلة، وقد كانت مسؤولية توزيع

١- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، الجزء الرابع ص ٣٢٨، ٣٢٩ تحقيق شعيب الأرنؤوط – عبد القادر الأرنؤوط طبعة مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية الطبعة الثامنة بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٢- أخرجه البخاري : كتاب الاستئذان، باب ما جاء في البناء، وأخرجه ابن ماجة : كتاب الزهد، باب في البناء... (٤١٢٦) .

الخطط في يد الرسول باعتباره الحاكم، وأن منهجه في توزيع الخطط تجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها، وتركت حرية تقسيم الخطط للقبيلة وفقًا لظروفها وإمكاناتها في الإنشاء والتعمير، ومدى الحاجة إلى ذلك، فكأنما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران كما حدث في إقطاع الزبير.

وعلى هذا الأساس، سار إقطاع الخطط والمنازل في المدن الإسلامية الناشئة، ومن أمثلة ذلك ما حدث في البصرة سنة (١٤ هـ / ٦٣٥ م)، والكوفة سنة (١٧ هـ / ٦٣٨م)، والفسطاط سنة (٢١ هـ/٦٤١م)، والقيروان سنة (٤٥ هـ/٦٦٥م)[١].

- السوق

كما حدد ﷺ موضع السوق لعلمه أن الاستقرار لا يقوم إلا به فهو مصدر التكسب والتجارة والحرف، روى الطبراني من طريق الحسن بن علي بن الحسن بن أبي الحسن: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «إني نظرت موضعًا للسوق أفلا تنظرون إليه. قال: بلى، فقام معه حتى جاء موضع السوق فلما رآه أعجبه وركض برجله وقال نعم سوقكم هذا فلا ينقصن ولا يضربن عليكم خراج». ورواه ابن ماجة بلفظ: «ذهب رسول الله ﷺ إلى سوق النبيط فنظر إليه فقال: ليس هذا لكم بسوق... ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال هذا سوقكم فلا تنتقصن ولا يضربن عليه خراج»[٢].

كما أقر الإسلام الأسواق التي تبايع الناس بها في الجاهلية، فعن ابن عباس قال: «كانت عكاظ، ومجنه، وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[٣].

١- د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٥٥ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٨٨ .

٢- الكتانى، التراتيب، المصدر السابق، الجزء الثاني ص ١٦٣ .

٣- سورة البقرة آية ١٩٨ .

- **مصلى العيد**

كان لسنة رسول الله ﷺ أثرها الواضح في اشتمال المدينة على ساحة فضاء تقام عليها صلاة العيد في الخلاء عرفت بـ«مصلى العيد» يخرج إليها أهل المدينة لصلاة العيد[١].

- **دور الضيافة**

وخصصت بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ دور للضيافة واستقبال الوفود كان من أهمها دار عبد الرحمن بن عوف الكبرى، وكانت تسمى «دار الضيفان» أو «دار الأضياف»، ونزل بها وفد تخع سنة ١١ هـ[٢]، ودار رملة بنت الحارث الأنصارية التي نزلتها وفود غسان، وبني ثعلبة، وعبد القيس، وبني فزارة، وعذره، وبني حنيفة[٣].

- **تحصين المدينة**

حرص رسول الله ﷺ على تأمين المدينة من أضعف الجهات وهي الجهة الشمالية وذلك قبل قدوم الأحزاب للمدينة، ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطرًا على كيان المسلمين مما يقاس، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها خبر هذا الزحف الخطير، وبعد أن استشار رسول الله أصحابه أخذ برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك»[٤]، وهذا

١- أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، جـ٢ ص ٥، ١٦ .

٢- د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٥٦ .

٣- ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق : لجنة حفظ التراث، بيروت ١٩٨٠، جـ٢ ص ٣٢٨.

٤- صفِيّ الدين المباركفوري : الرحيق المختوم، ص ٢٩١ دار إحياء التراث القاهرة .

درس يلقنه الرسول لنا وهو أن نأخذ من الأمم التي سبقتنا في أطوار العلم ما يفيدنا منها فقط، يرفع من مقدرة المسلمين على الاستجابة للتحديات أيام السلم والحرب.

وعن أنس خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من نصب وجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد وما بقينا أبدا[1]

وقسم الصحابة إلى مجموعات يتكون كل منها من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعًا، ولما كان طول الخندق حوالي «١٢٠٠ ذراع»، فإنه يكون قد اشترك في حفره ثلاثة آلاف مسلم، وخط الرسول الخندق من حصن الشيخين قرب خطة بني حارثة حتى بلغ المذاذ وهو حصن بني خزام من بني سلمة غربي مسجد الفتح[2].

وحفر الخندق هو عمل معماري حربي ضخم، أنجز في فترة وجيزة، بلغت في أقصى تقدير أربعة وعشرين يومًا، وكان لحُسْنِ تنظيم العمل ومخافة هجوم الأعداء بسرعة أثره في ذلك، واستكمالاً لأعمال التحصين حصنت جدران المنازل التي قرب الخندق والتي بينها وبين العدو مسافة قصيرة[3].

واتخذ الرسول المعسكرات لجنده خارج المدينة على مسافة منها، ومن أمثلة ذلك معسكر الجرف الذي يبعد عن المدينة ثلاثة أميال في اتجاه

١- أخرجه البخاري عن أنس- حديث:٤٠٩٩ .

٢- السمهودى المرجع السابق، الجزء الرابع ص ١٠٩، خليل السامرانى وثائر حامد محمد المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة ص ٦٧ الموصل ١٩٨٤ .

٣- السمهودى المرجع السابق، جزء ٣ ص ٩٥١، ٩٥٢ ابن سيد الناس المرجع السابق جـ٢، ص ٢٨٧.

الشمال، وهو معسكر أسامة عندما أرسله إلى الشام، وهو الذي عسكر به الجند عند ذهابهم إلى مؤتة[1] .

تلك كانت لمحة عامة عن المظاهر العمرانية بالمدينة المنورة على عهد رسول اللّه ﷺ، والتي اقتدى بها المسلمون في تخطيط مدنهم بعد ذلك، كما حدث في البصرة والكوفة والقيروان والفسطاط وغيرها من الحواضر الإسلامية...[2] .

١- السمهودى المرجع السابق جـ ٣ ص ٨٤٣، ٨٤٤، جـ ٤ ص ٩، ١٢٦ ابن سيد الناس المرجع السابق جـ ٢ ص ٤١٩ . د . السامرانى وثائر حامد محمد المرجع السابق ص ٧٣ .

٢- للاستزادة انظر : صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة وتراثها المعمارى، محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية من ص ٥١ : ص ٦٤ .



الفصل الثاني

المدينة

في التراث العلمي الإسلامي

- **أحوال الإنسان في الاجتماع والأسباب الموجبة لاتخاذ المدن:**

الأحـوال التي يتقلب فيها الإنسان في الاجتماع تدل على حكمة إلهية عظيمة، إذ في تتبعها يصل المتفحص إلى محصلة نهائية في أن الأحوال عبارة عن حلقات مترابطة تدل على قدرة الخالق وعجز الإنسان، فالإنسان في أحواله الأولى يخلق محتاجًا لغيره ويفطر على العجز وهذا يلازمه طوال حياته، لتكون المحصلة النهائية أن يكون الله سبحانه وتعالى بالغنى منفردًا وبالقدرة مختصًا وحتى يشعرنا بقدرته فنقر بنقصنا وعجزنا وحاجتنا إليه وإلى بعضنا البعض[1]. قال الإمام الماوردي[2] رحمه الله تعالى في «أدب الدنيا والدين»: (اعلم أن الله لنافذ قدرته وبالغ حكمته.. أن خلقهم «بنو آدم» محتاجين وفطرهم عاجزين. ليكون بالغنى منفردًا وبالقدرة مختصًا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا..)[3].

قال الأرزنجاني[4] في منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين للماوردي: «خلقهم محتاجين إليه تعالى في مأكلهم وملبسهم ومسكنهم من حيث موادها، وإلى جنسهم من حيث صورتها وإحضارها، و فطرهم عاجزين عن إيجاد المواد، ليكون بالغنى منفردًا وبالقدرة مختصًا

١- د. وليد عبد الله المنيس، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٨ نشر قسم الجغرافيا بجامعة الكويت، والجمعية الجغرافية الكويتية رسائل جغرافية رسالة رقم ٦٢ ربيع الآخرة ١٤٠٤ هـ.

٢- الماوردي، أبو الحسن على بن حبيب البصري الشافعي، علم من أعلام الفكر الإسلامي، فقيه حافظ من أكبر فقهاء الشافعية، ورجل من أبرز رجال السياسة في الدولة العباسية، وأديب متفنن عاش بين ٣٦٤ هـ / ٤٥٠ هـ، له كتب في السياسة مثل «الأحكام السلطانية» و «تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك»، و«أدب الدنيا والدين» وكتب في الفقه مثل «الحاوى«و «الإقنا» وغيرهم انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٣/٣١٤٣٠٤، طبقات الشافعية للأسنوي، ٢/٣٨٧ – ٣٨٨ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي وهو أحد تلامذته، وغيرهم.

٣- الماوردي، أدب الدنيا والدين، بتحقيق مصطفى السقا ص ١٣٢، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.

٤- الأرزنجاني، أويس بن وفا الشهير بخان زاده، وضع كتاب «منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين» وهو شرح لكتاب الماوردي السابق الذكر طبع بالأستانة ١٣٢٨ هـ.

وممتازًا عن الخلق، فقابَلَ الاحتياجَ بالغنى والعجزَ بالقدرة»[١].

لهذا، فإن عجز الإنسان بيان لقدرة الله سبحانه وهيمنته عليه واستحالة البقاء دون الرغبة إليه، قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[٢]، قال الماوردي يعني عن الصبر عما هو إليه مفتقر والمفتقر إلى الشيء عاجز عنه[٣].

وتتمثل حكمة آخرى في العجز الفطري عند الإنسان وهي: أنه يطغى إذا اغتنى ولا يبطش إذا قدر.... قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[٤]، يخبر الله تعالى أن الإنسان ذو فرح، وأشر، وبطر، وطغيان إذا رأى نفسه استغنى وكثر ماله[٥].

ويرتبط في العجز حكمة ثالثة وهي: أن هذا العجز يدفعه لإيجاد الحيل للترزق، قال الماوردي: «ولدفع عجزه حيلًا دله عليها بالعقل وأرشده إليها بالفطنة قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ »[٦]. قال الأرزنجاني في شرحه: «أي فوجه كل واحد منها إلى ما يصدى عنه، وينبغي له طبعًا واختيارًا ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات»[٧].

وحمة أخرى تتجل في أن اختلاف الناس بالقدرات والميول والإلهامات يحتم عليهم التعاون لسد حاجة بعضهم البعض، ذلك أنه إذا تساوى الجميع بالقدرات لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلًا فيهلك الجميع عجزًا[٨]. قال ابن أبى الربيع في «سلوك المالك» موضحًا الأسباب

١- المصدر السابق ص ٢١٨ .

٢- النساء آية ٢٨ .

٣- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ١٣٢ .

٤- العلق آية ٦، ٧، انظر : تفسير ابن كثير ٧ / ٣٢٧ .

٥- د . وليد المنيس، المرجع السابق ص ٩ .

٦- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ١٣٣، سورة الأعلى آية ٣ .

٧- الأرزنجاني، منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، ص ١٣٥ .

٨- الماوردي تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاف الملك وسياسة الملك ص ٣، أدب الدنيا والدين ص ١٣٥، د. وليد المنيس المرجع السابق ص ١٠ .

الداعية للتعاون: «ولما كان الإنسان مفتقرًا إلى هذه الأمور، غير مستغن عنها وهي الغذاء ليجعله خلقًا لما يتحلل من بدنه، واللباس ليدفع عن نفسه ألم الحر والبرد والرياح، والمسكن ليصون نفسه ويحرسها من تطرق الآفات، والجماع ليبغى به النوع، العلاج لتغيير الكيفيات التي فيه ولما يناله من تفرق الاتصال... احتاج حينئذ إلى الصنائع والعلوم التي تعمل بها هذه الأشياء. ولما كان الإنسان الواحد لا يمكنه أن يعمل الصنائع كلها افتقر بعض الناس إلى بعض»[١].

ولو تدبرنا القرآن الكريم لوجدنا أن ما جاء في سورة الزخرف قد اتخذ أساسًا في تفسير أسباب الاجتماع البشري والحاجة للتعاون: قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٢].

قال المفسرون «قيل معناه ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا» قاله السدي وغيره[٣].

أما الحكمة الآخرى والمحصلة النهائية فهي الاجتماع في موضع واحد لينال بعضهم من بعض المنافع من قرب وبذلك اتخذوا المدن لأن الله سبحانه طبع الإنسان إلى الميل للاجتماع قال ابن خلدون في المقدمة: «إن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران»[٤].

قال بن الأزرق الذي درس «المقدمة» وعرف بأفكار ابن خلدون في كتابه «بدائع السلك في طبائع الملك» في ما ذكره ابن خلدون: «الإنسان مدني

١- ناجي التكريتي «الفلسفة السياسية عند ابن أبى الربيع» مع تحقيق كتابه «سلوك المالك في تدبير الممالك» ص ١٧٤ – ١٧٥ .

٢- الزخرف آية ٣٢ .

٣- تفسير ابن كثير ٦ / ٢٢٥، د . وليد المنيس، المرجع السابق ص ١٠ .

٤- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون ط دار التراث، جـ١/٤١.

بالطبع أي لابد من الاجتماع الذي هو المدينة عندهم (الفلاسفة) ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه إذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه»[١].

ولقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن الاجتماع المدني، وقال: «إن بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون، التعاون على جلب منافعهم والتناحر لدفع مضارهم»، وينهي كلامه بقوله: «ولهذا يقال إن الإنسان مدني»[٢].

يتبين لنا مما ذكر آنفًا أن الاجتماع الإنساني فطرة مجبول عليها الإنسان للحصول على منافعه في الدنيا والآخرة بدأت بالعجز الفطري الذي دفع إلى الخضوع للخالق ومن ثم البحث عن الرزق، ثم التعاون لسد حاجات البعض للبعض لتنتهي إلى اتخاذ المدن، وهي الصورة الإنسانية للاستقرار المؤقت الذي يدوم بدوام الحياة وينتهي عندما يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها[٣].

ومن الذين عبروا عن ضرورة اتخاذ المدن القزويني قائلًا: «إنه عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا (البشر) في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا في الخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي بأس، فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور

١- ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد الأندلسي، مؤلف كتاب «بدائع السلك في طبائع الملك» تحقيق د . محمد عبد الكريم، قال المحقق في تعليقه على محتويات هذا الكتاب النفيس«.... فيه رد زعم من زعم أن أول من عرف بأفكار ابن خلدون ودرس نظرياته هم الأوربيون . وهذا الزعم باطل ليس له نصيب من الصحة بل هو باطل ومردود على صاحبه . والصحيح أن ابن الأزرق الذي أتى بعد ابن خلدون بثلاث وعشرين سنة هو أول من عرف بأفكاره ودرس مقدمته دراسة عميقة استوجبت تلخيصه إياها تلخيصًا محكمًا ثم دمجه بهذا التلخيص في كتاب «بدائع السلك». أنظر ص ٦، ص ٧١ .

٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى جـ ٢٨ / ٦٢ .

٣- د . وليد المنيس، المرجع السابق ص ١٢ .

والخندق والفيصل فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار... واتخذوا للمدن سورًا حصينًا، وللسور أبوابًا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل يدخل المرء ويخرج من أقرب باب إليه، واتخذوا لها قهندازا لمكان ملك المدينة والنادي لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات ومراكض الخيل ومعاطن الإبل ومرابض الغنم، وتركوا باقي مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك والعظماء على هذه الهيئة فنرى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة، والصور الحسنة والأخلاق الطيبة، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة واعتبر ذلك بمن مسكنه لا يكون كذلك... ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة، ونشأ فيها صنف من المعادن والنبات لم يوجد في غيرها وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ فيها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات»[1].

ولهذا التعريف دلالته المتصلة مباشرة بالمقاييس والمعايير الحضارية التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الأخرى، فهو يشير صراحة إلى أن المدن لا تقام إلا في حالة تواجد «الهيئة الاجتماعية».كما أشار إلى أن المدينة تتميز بسورها الذي يحصنها، وفى ذلك تأكيد واضح على الدلالة الحضارية لإقامة السور الذي يعني الأمن والأمان لساكني المدينة.

كما ألمح النص إلى وجود سلطة في المدينة ممثلة في الحاكم أو الملك عندما ذكر مقر إقامته وصفته بالمدينة، وفى الاتجاه نفسه فقد أشار إلى ما تتميز به المدينة الإسلامية من منشآت وتكوينات ارتبطت بحياة ساكنيها وحضارتهم، مفرقًا في ذلك بين المدينة الإسلامية وما عداها، إضافة إلى ذلك أشار إلى القيمة الحضارية لحياة المدينة باعتبارها عكس طبيعة أهلها

١- القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ص ٧ – ٨ .

وسماتهم وخصوصًا عندما اعتبر غير ساكني المدن ممن يعيشون حياة بدائية، وفي النهاية أشار إلى أثر اختلاف طبيعة الأرض والمناخ على النشاط البشري، وتميز مجتمع مدينة عن مجتمع مدينة أخرى بنشاطات يتفوقون فيها، فوازن تعريفه بين المنظور المادي والمنظور الاجتماعي بصورة تؤكد سبق الفكر الإسلامي في إدراكه المقاييس والمعايير التي تميز المدينة[١].

- المدينة عند علماء الحديث

اهتم علماء الحديث بدراسة المدن والأمصار والأقاليم التي كان يوجد فيها علم الحديث والأثر كما جاء في رسالة الإمام الذهبي «الأمصار ذوات الآثار» حيث أورد اسم تسعاً وعشرين مدينة وأقاليمها، وذكر تحت كل واحدة منها بعض مشاهير علمائها وحفاظها وأعيان محدثيها، كما أضاف إلى ذلك زمن بناء المدن وفتحها وصفتها من ناحية كونها أكبر مدن أحد الأقاليم، فقد ميز في رسالته بين المدن والأقاليم والبلدان بوضوح حيث ظهر أنه قد اعتبر المدينة المنورة ومكة المكرمة مدنًا مثلاً واعتبر الإسكندرية «تبع لمصر» و «مصر» «بلداً كبيراً» وكذا «خوارزم» وغير ذلك. وقد حرص رحمه الله على ذكر أزمنة العلم وذيوعه وشيوعه ونقصه وأسباب ضعفه كما أضاف فوائد تاريخية وجغرافية في هذه المدن والأقاليم التي ذكرها في رسالته التي أوضحت منهج علماء الحديث في دراسة المدن والحواضر[٢].

- المدينة عند فقهاء المسلمين

سار منهج تخطيط المدن الإسلامية ومراحل إنشاء تكويناتها المعمارية في توافق تام مع أحكام البناء التي أقرها فقهاء المسلمين استنادًا إلى الكتاب

١- د. محمد عبد الستار عثمان.

٢- الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق: قاسم علي سعد ص ١٢٨، ١٥١، ١٥٦ ... الخ، دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ . د. وليد المنيس جغرافية الحضر ص ١٧ حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الحادية عشر الرسالة الخامسة والستون ١٤١٠ هـ / ١٤١١، ٨٩ / ١٩٩٠م.

والسنة، وتزخر المصادر الفقهية بهذه الأحكام، فهي تعرض للبناء الواجب من مساجد وأربطة وحصون وأسوار وجسور وقناطر وسدود وغيرها، والبناء المندوب كالمآذن والأسواق والبناء المباح كالمساكن والحوانيت للاستغلال مع بيان القواعد التي تحكم هذا النوع من البناء باعتبار أن للسلطة شأنًا فيه، والبناء المحظور كبناء القبور والكنائس، والبناء على أرض الآخرين، كما تعرض لحكم التوسع في البناء والتطاول فيه وزخرفته[1]، ويفسر الربط بين دراسة تخطيط المدن الإسلامية وتكويناتها المعمارية بتفاصيلها المختلفة وبين أحكام البنيان الفقهية كثيرًا من الملامح والظواهر التي تميز المدينة الإسلامية عن غيرها، ويؤكد هذا التفسير خطأ من يبتعد عن هذه الأحكام أو يتجاهلها عندما يعرض بالدراسة لأي جانب من جوانب المدينة الإسلامية، ثم يتعرض بالنقد والاتهام دونما سابق معرفة بالحكمة والغاية الإسلامية من هذا الأمر أو ذاك، وقد حرص الفقهاء دائمًا على الإجابة عن المسائل الفقهية التي تتعرض لأمور البناء، منها على سبيل المثال إجابات فقهاء قرطبة على العديد من المسائل التي طرحت عليهم وقد نشرت العديد من الوثائق التي تتضمن إجابتهم والتي اعتمدت على كتاب الله وسنة رسوله[2].

أقر الإسلام مبدأ الوقف، وأوضح الفقهاء الأصول التي تتبع عند الوقف، وصنفوا أنواعه وحددوا شروطه، وظهر أثره في عمران المدينة الإسلامية، باعتبارها حيز التطبيق لأوجه نشاطه المعماري، وتطورت أهمية الوقف

١- ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق عبد الرحمن بن صالح الأطرم، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٣ هـ، والكتاب فريد في نوعه فقد جمع كل المسائل المتعلقة بالبنيان وأحكامه التي أفتى وحكم فيها فقهاء وقضاة المالكية، الحاشية عن د.عبد الستار عثمان، المرجع السابق ص ٤٥، ومن أهم الدراسات الحديثة التي تعرضت لأحكام البناء في الإسلام تلك الدراسة التي قام بها محمد بن إبراهيم الفائز بعنوان «البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي» وهى رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٦ هـ.

٢- د. محمد عبد الوهاب خلاف، تسع وثائق في شئون الحسبة على المساجد في الأندلس، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الخامسة الرسالة الثانية والعشرون ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

بتطور حياة المجتمع الإسلامي من عصر إلى آخر، ومارست الأوقاف دورًا اختلفت أهميته من عصر إلى آخر، فأحيانًا كان دورها محدودًا وكانت تمثل حالات خاصة حتى نهاية القرن الخامس الهجري، عندما بدأت تظهر متغيرات جديدة تبعها اهتمامٌ كبيرٌ بالأوقاف، وتحول الأمر من مجرد حالات خاصة إلى ظاهرة عامة مارست دورًا فعالاً شرقًا وغربًا[١].

المدينة الإسلامية عند الجغرافيين المسلمين

درس البعض منهجية دراسة المدن عند الجغرافيين المسلمين وذلك من خلال استعراض الكتابات الجغرافية، وبيان نصيب المدن منها، مع عرض الكتابات المتفردة التفصيلية الخاصة بالمدن، وقد قسم المنهجية إلى قسمين رئيسيين يندرج تحت كل منهما جملة من الأعمال الجغرافية تصب في قالب منهجي معين في دراسة المدن هما[٢]:

الأول: منهج دراسة المدن من الخارج.

الثاني: منهج دراسة المدن من الداخل.

أما بشأن منهج دراسة المدن من الخارج فيندرج تحته مجموعة الأعمال التي تصنف تحت كتب الزيوج والجداول الجغرافية وهي: الكتب التي تحدد مواقع المدن باستخدام خطوط الطول ودوائر العرض أو التحديد الفلكي للحواضر والمدن والبلدان... الخ، وهو أسلوب يقوم على تحديد درجات الطول والعرض للمدن لمعرفة مواقعها بدقة باستخدام الحساب ونحو ذلك وتسمى أيضًا الزيجات، ومن أبرز رواد هذا الاتجاه محمد بن موسى الخوارزمي الذي تناول تحديد درجات الطول والعرض لخمسمائة وتسع

١- د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية ص ٨٠، وانظر أيضًا كتاب ندوة مؤسسة الأوقاف بالعالم الإسلامي إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٢- د . عبد العال الشامي «جغرافية المدن عند العرب» مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع، العدد الأول ١٩٧٨، الصفحات ١٢٣ إلى ١٦٨ .

وثلاثين مدينة وزعها على الأقاليم، ولقد حدد عدد المدن في كل إقليم من هذه الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك[١] .

وقد قام القزويني، كذلك، بتحديد مواقع المدن بهذه الطريقة وتحدث عن المدن في كل إقليم من الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك كما في حديثه عن الإقليمين الثالث والرابع بتفصيل وتحليل تاريخي وجغرافي وسياسي يدل على خبرة معرفية ومنهجية[٢] .

كما قام العلماء بوضع الكتب التي تعلم كيفية استخراج مواقع المدن وتحديدها بأدوات ووسائل خاصة كما جاء في كتاب «سهراب» المسمى «عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمار»، يقول مؤلف هذا الكتاب: «قال جامعه أفقر الورى سهراب فإذا أردت أدام الله كرامتك أن تبتدئ بعمل ذلك في بسيط مربع فليكن حسب ما أحببت وكلما اتسع كان أحسن فاعمد إلى حواشيه، فاستخرج في كل حاشية منها ثلاثة خطوط مثل خطوط المسطرة... الخ»[٣] .

ومن العلماء الذين أبدعوا في هذا المجال الأمير عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء صاحب حماة الذي وضع كتابه المشهور «تقويم البلدان» الذي يقوم على ذكر صفات المدن وضبط أسمائها وتحديد مواقعها بالزيجات، ولقد اتبع هذا الكتاب منهجًا جديدًا في معلوماته عن المدن والحواضر والمواقع التي درسها حيث استخدم طريقة الجداول المعنونة والمقسمة [٤] .

١- د . وليد المنيس، جغرافية الحضر، ص ٢٨ .

٢- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٣٧ . وليد المنيس، المرجع السابق، ص ٢٩ .

٣- تمام عنوان الكتاب «كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة وكيفية هيئة المدن وإحاطة البحار بها وتشقق أنهارها ومعرفة جبالها وجميع ما وراء خط الاستواء والطول والعرض بالمسطرة والحساب والعدد والبحث على جميع ما ذكر»، طبع ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩، أنظر ص ٥ – ١٢ طبع في فيينا، د . وليد المنيس، المرجع السابق، ص ٢٩ .

٤- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٨٦، باريس ١٨٦٠ . وليد المنيس، المرجع السابق ص ٣٠ .

و كان لكتب المسالك والممالك دورها الهام في الدراسات الحضرية الجغرافية خاصة في قسمها البشرى، وعلى الأخص ما تعلق منها بالمدن والحواضر، وهي تعادل في أيامنا هذه ما يعرف بالجغرافية الإقليمية إلى حد كبير لأنها تبحث في الجغرافيا الطبيعية والبشرية وما يتصل بها من منظور إقليمي، وقد أضافت معلومات عن المدن الموجودة في الأقاليم المدروسة كالحديث عن الناس وعاداتهم وأحوالهم والطرق والأسواق وموارد المياه والمساجد والظهير الذي يحيط بالمدن وأصل المدينة وتاريخها والتبدلات التي طرأت على أصلها بأثر تطورها الحديث، كما ساعدت هذه الكتب على تبصير الإداريين والأمراء وعمال الدواوين بالعالم الإسلامي وحدوده ومعالمه بما يساعد على دقة ضبطه وإدارته، ففي كتاب البكري «المسالك والممالك» دراسة شاملة لكل مدينة، ومن هذا المنهج، عَدَّدَ الجغرافيون المسلمون خمس فئات من المدن هي «الحاضرات» و«العواصم الإقليمية» و«المدن الإقليمية» و «الضواحي» و «القرى»، ومن أبرز رواد هذه المنهجية: المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» والذي وضعه عام ٣٧٥ هـ[١].

وقد برز في هذا المجال أيضًا أصحاب كتب المعاجم الجغرافية، ويأتي في طليعة هذا الاتجاه: أبو عبيد البكري الذي صنف «معجم ما استعجم» وياقوت الحموي صاحب «معجم البلدان» ويعد معجم ياقوت أشمل من معجم البكري، فالأول غطى أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي وأجزاء أخرى خارجة عن بلاد الإسلام بينما جاء معجم البكري خاصاً بالجزيرة العربية فقط.

كما تحدثت الموسوعات (الجمهرات) عن المدن باستفاضة مثل عمل الوطواط والنووي وابن فضل الله العمري والقلقشندى، وظهر فيها

١- د . وليد المنيس، المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢ .

الحديث عن المدن وسكانها وأحوالها وتقسيماتها، ودرست كتب الجغرافيا الإدارية وهذه تدرس المدن من الناحية الإدارية وقوانينها كما في «قوانين الدواوين» لابن مماتي و «لمع القوانين» للنابلسي وغيرهم.

كما وضعت خرائط للمدن مع الإشارة إلى وظائفها وأحجامها كما في خرائط مصر للإصطخري والمقدسي والإدريسي وابن حوقل.. كما أبرزت هذه الخرائط أحياء المدن والظواهر الطبيعية المحيطة بها وغير ذلك.

أما منهج دراسة المدن من الداخل، فيندرج تحت كتب الخطط كما هو في الكتب التي وضعت عن خطط مصر منذ النصف الثاني من القرن الثالث بما كتبه ابن الحكيم والكندي والمقريزي في القرن التاسع، والذي وضعه دراسة مفصلة مشهورة لخطط مصر ومدنها وقراها، وكتب وتواريخ المدن هذه قد أفردت لتواريخ عواصم الخلافة الإسلامية كمكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد... الخ. وكتب الرحلات الجغرافية وهي تضيف تفصيلات قيمة عن المدن حيث يلفت نظر الرحالة ما يخالف ما لاقوه في بلادهم وأشهر هذه الأعمال رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة وغيرهما، وكتب الحضارة والعمران، وهذه تبحث في مدينة العرب وأحوال البوادي والأرياف عن خصائص مواقع ومواضع المدن وضوابطها البشرية والطبيعية وعوامل قيامها وزوالها ومن أشهرها مقدمة ابن خلدون[١].

- شروط اختيار مواقع المدن وصفات مواضعها

تحدث العلماء المسلمون عن الضوابط الواجب مراعاتها عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشائها وفقًا لشروط دقيقة، يقول ابن خلدون في شروط اختيار مواقع المدن ما يأتي:

١- أن تحاط بسور يدفع المضار.

١- د. عبد العال الشامي، المرجع السابق ص ١٢٩، د. وليد المنيس، المرجع السابق ص ٤٣، ٤٤.

٢- أن تحتل موضعًا متمنعًا من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر... الخ.

٣- مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض.

٤- جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة.

٥- طيب المراعي لسائمتهم.

٦- مراعاة المزارع فإن الزروع هي الأقوات[1].

ويفصل ابن الأزرق ما تحدث عنه ابن خلدون فيشير إلى أن يجب مراعاةأصلين مهمين في أوضاع المدن: دفع المضار، وجلب المنافع، ثم يذكر أن المضار نوعان: «أرضية «ودفعها بإدارة سياج السوار على المدينة، ووضعها في مكان ممتنع، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر - حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها، والنوع الثاني من المضار سماوي ودفعه باختيار المواضع طيبة الهواء لأن ما خبث منه بركوده أو تعفن بمجاورته مياهًا فاسدة، أو منافع متعفنة، أو مروجًا خبيثة يسرع المرض فيها للحيوان الكائن فيه لا محالة، كما هو مشاهد بكثرة، ويكشف عن أن هناك علاقة طردية بين كثرة ساكني البلد وحركة الهواء فيها، ويضرب لذلك مثلاً بفاس التي كانت عند استبحار العمران بأفريقية كثيرة السكان فكان ذلك معينًا على تموج الهواء وتخفيف الأذى عنه، فلم يكن فيها عفن ولا مرض، وعندما خف ساكنوها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض، ويضرب مثلاً عكسيًا ببلاد أخرى وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء، وكانت أمراضها كثيرة لقلة ساكنيها وعندما كثروا انتقل حالها من ذلك، كدار الملك بفاس لهذا العهد المسمى «فاس الجديد» وكثير من ذلك في العالم.

والأصل الثاني: وهو جلب المنافع، ويتأتى بمراعاة أمور منها: توفر الماء

١- ابن خلدون، المقدمة، الجزء الثالث، ص ٨٣٩ - ٨٤٠ تحقيق د. على عبد الواحد وافى.

كأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة لأن وجود ذلك يسهل الحاجة إليه وهي ضرورية وطيب المراعي للسائمة وقربه، إذ لابد لذي قرار من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ومتى كان المرعى الضروري لها كذلك كان أوفق من معاناة المشقة في بعده، وقرب المزارع الطيبة لأن الزرع هو القوت، وكونها كذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، والشجر للحطب والخشب، فالحطب لعموم البلوى به وقود النيران والخشب للمباني، وكثير مما يتحصل فيه ضروري أو كمالي، وقربه من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية، ولا خفاء في أن هذه الأمور تتفاوت بحسب الحاجة وما تدعو إليه ضرورة السكان[1].

وإذا كانت هذه الشروط واجبة الاعتبار بالنسبة لاختيار مواقع المدن بصفة عامة، فقد أشار الفكر الإسلامي إلى اعتبارات خاصة تجب مراعاتها بالنسبة لاختيار مواقع المدن الساحلية، منها: أن تكون في جبل وبين أمة موفورة العدد، ومتى لم تكن كذلك طرقها العدو البحري في أي وقت أراد، لأمنه إجابة الصريخ لها، ويضرب ابن خلدون مثلاً لذلك بالإسكندرية في المشرق، وطرابلس وبرقة وسلا في المغرب، ثم يشير إلى أن المدينة البحرية إذا كانت متوعرة المسالك وحولها القبائل بحيث يبلغهم الصريخ تمنعت بذلك من العدو ويئس من طروقها كما في سبتة وبجاية وفي ضوء هذا الاعتبار يفسر لنا تسميته الإسكندرية بـ«الثغر» في عهد الدولة العباسية – وهي التسمية التي تطلق على البلاد التي على الحدود – رغم أن الدعوة كانت من ورائها لبرقة وإفريقية، اعتبارًا للمحافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها، الذي أغرى الأعداء بمهاجمتها هي وطرابلس مرات عديدة[2].

١– ابن الأزرق، المرجع السابق، ص ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦ .

٢– ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠ . ابن الأزرق، المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٦٦، ٧٦٧ . د. محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص ٣١، ٣٢ .

ولقد تحدث عن شروط إنشاء المدن عدد كبير من العلماء اختزنا منهم ابن أبى الربيع والماوردي لما في كتاباتهم من تفصيل متسلسل قال ابن أبي الربيع في شروط إنشاء المدن:

أحدها: أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.

الثاني: أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

الثالث: أن يبنى فيها جامعًا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.

الرابع: أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

الخامس: أن يميز قبائل سكناها بأن لا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة.

السادس: إن أراد سكنها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كَنَفًا له من سائر جهاته.

السابع: أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

الثامن: أن ينقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة لسكانها[١].

يتضح من كلام ابن أبى الربيع المتوفى سنة ٢٧٢ للهجرة مدى الفهم المقرون بالتحليل المنطقي في شروط إنشاء المدن، ففي سوق المياه للمدينة للشرب لتسهيل مهمة الحصول عليه «دون عسف» دليل على وصول المخطط الحضري إلى مرحلة الحرية في اختيار الموقع المدني متخطيًا ما يسمى بالحتمية الطبيعية (Determanism) التي تحتم على المخطط أن يبني مدنه بالقرب من وديان الأنهار والمواقع ذات الثروات الطبيعية. فهو هنا يستطيع أن يسوق المياه إلى المدينة التي قد يكون موقعها بعيدًا عن مصادر المياه مثلاً. وسنفصل هذا الأمر في الفصل القادم[٢].

أما الشوارع، فيرى ابن أبى الربيع أن تقدر بصورة تناسب الاستخدام

١- بن أبى الربيع سلوك المالك في تدبير الممالك، ص ١٩٢ بتحقيق د . ناجى التكريتي .

٢- د. وليد المنيس، التفسير الشرعي للتمدن، ص ٢٢ .

البشرى ووسائل النقل المتاحة آنذاك، والتي كانت إما على الدواب أو بواسطة الإنسان. أما اشتراط المركزية في مواقع المساجد فهذا غاية في اختيار الموقع المناسب لمرفق يستخدمه الناس خمس مرات في اليوم. فالمركزية تسهل الوصول إليه من جميع الأماكن المحيطة بمسافات متقاربة نوعًا ما. أما شرط تقدير الأسواق بكفايتها فيدل على أمور كثيرة منها ألا تزيد عن حاجة السكان فتنهار الأسعار وتبور البضائع وحتى لا تقل أيضًا عن الحاجة فترتفع أسعارها. كما أن في ذلك إشارة لتحديد الحجم المناسب للأسواق بصورة تناسب حجم السكان.

أما شرط تمييز قبائل ساكنيها وخطورة خلط الأضداد في القطاع السكني في المدينة فهذا غاية العبقرية في التخطيط الإسكاني المبنى على الفهم الدقيق للأجناس البشرية. بمعنى آخر هو يحرص على إيجاد ما يسمى بالانسجام العرقي الحضري ونبذ التضاد، لأنه سيؤدى بالتالي إلى التكتل وتحويل المدينة إلى بقاع عرقية موزعة توزيعًا غير منسجم. وفى الواقع أن الكثير من المخططين المعاصرين لم يعيروا هذه الظاهرة اهتمامًا كثيرًا في خططهم المدينة، مما أدى بالتالي إلى عودة السكان مرة أخرى إلى الهجرات الداخلية وراء القرابة العرقية والعائلية وبالتالي فشل الخطط الإسكانية، أما شرط إحاطة المدينة بسور فهذا من خصائص المدن قبل الثورة الصناعية حيث كانت تؤدى وظيفتين رئيسيتين:

الأولى: حفظ المجتمع الداخلي كأسرة واحدة، وهذا مصداق قول ابن أبى الربيع «لأنها بجملتها دار وحدة» والوظيفة الأخرى الحماية، وذلك نظرًا لمحدودية السلاح آنذاك وكثرة الحروب وخاصة في المدن المنشأة في البلاد التي تم فتحها قريبًا نظرًا لتوقع الهجوم في أي وقت كما في مدن الأندلس. ومن الشروط الهامة التي ذكرها ابن أبى الربيع الشرط المتعلق بالصنائع حيث اشترط أن ينقل إلى المدينة بقدر ما تحتاجه من هذه الصنائع ويفهم من هذا الحرص على أن تتناسب الصناعة مع الخبرات المحلية والحاجة

إليها وأيضًا حتى لا تقل فتؤدي إلى البطالة[١].

والخلاصة أن ابن أبى الربيع في شروطه الموجبة لإنشاء المدن قد بين لنا مقدار إحاطته بتركيب المدينة السكاني والتجاري والصناعي، ومن ثم صاغها في خطوط عامة يمكن أن تنطبق على أكثر المدن – إن لم نقل جميعها – حتى في وقتنا الحاضر.

أما الماوردي، الذي جاء بعد ابن أبى الربيع بحوالي قرن من الزمان فقد انتقل إلى مرحلة جديدة في تاريخ التمدن والتخطيط الحضري، لقد صنف الماوردي وظائف المدن، وميز بينها حسب كل وظيفة، فتكلم عن تركيبها الداخلي وشروط اختيار موقعها ومميزاتها بصورة تلائم الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة آنذاك[٢].

لقد كان للتخطيط الحضري في عهد الخلافة وما تلاها نصيب كبير، واتخذ أبعادًا معينة ملائمة لحاجة الناس، مما يدل على سعة هذه الشريعة، فيحدثنا أبو يعلى الحنبلي رضي اللّه عنه عن الخطة المدنية في عهد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في البصرة، ويعطينا عرض شوارعها وأزقتها والشكل العام للخطة بصورة تنم عن أسبقية وعبقرية. قال أبو يعلى الفراء رحمه اللّه: «وقد مصرت الصحابة البصرة على عهد عمر، وجعلوها خططًا لقبائل أهلها فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها ستين ذراعًا، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعًا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبول موتاهم، وتلاصقوا في المنازل، ولم يفعلوا ذلك إلا عن رأي اتفقوا عليه نصاً لا يجوز خلافه. وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن رسول

١- المرجع السابق، ص ٢٢، ٢٣ .

٢- د. وليد المنيس، المرجع السابق ص ٢٣ .

الله ﷺ قوله: (إذا تدارأ القوم في طريق فلتجعل سبعة أذرع)[1].

يبين لنا هذا التفصيل الدقيق صورة المدينة الإسلامية آنذاك، وأن هذه المدينة خرجت من حيز التنظير إلى حيز التطبيق، إن هندسة المدن الإسلامية وبناء مرافقها لم تكن من الأمور المرتجلة، وإنما كان ثمة شيء من التنظيم منذ أول شروع المسلمين في تخطيط البصرة والكوفة والفسطاط، وذلك في وضع العلامات على الأرض كما هي الحال في خطط الكوفة والبصرة والموصل[2].

ويحدثنا اليعقوبي عن تخطيط بغداد أنه في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ هـ وقع اختيار أبي جعفر المنصور على موقعها بإقامة مدينته عليها، فوقع اختياره على المهندسين عبد الله بن محرز، والحجاج بن يوسف، وعمران بن وضاح، وشهاب بن كثير، وأمرهم بتخطيطها، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما تعتدل به المنازل، وأن يسموا كل درب يسكنونه، وحدد لهم عرض الشارع بخمسين ذراعًا والدروب ستة عشر ذراعًا، وطلب إليهم أن يعرضوا عليه تخطيطها، فخططت له بالرماد، وتنقل بين شوارعها ورحابها واعتمد الرسم، وأمر بالتنفيذ على مقتضاه[3].

دخلت على غالبية المدن القديمة بعد الفتح الإسلامي، وبمرور الزمن، الكثير من التعديلات التي جعلتها تتكيف وتتواءم مع خصوصية المجتمع الإسلامي وتعبر عنه وقد احتوى هذا التكيف المدن الجديدة التي شيدها

١- أبو يعلى، الأحكام السلطانية تحقيق حامد الفقي ص ٢١٣ دار الفكر القاهرة ١٩٧٤ .

٢- البلاذري فتوح البلدان، ص ٢٧٥، نشر صلاح الدين المنجد القاهرة ١٩٥٧ .

٣- حسن عبد الوهاب، الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية ص ٧٧، ٧٨، ٨١ . مجلة سومر الجزء الأول والثاني المجلد الرابع عشر ١٩٥٨ م .

الحكام والولاة المسلمون، لتكون مقارًا لهم أو معسكرات لجيوشهم[١].

- **طرق المواصلات بين المدن الإسلامية**

اهتم الحكام المسلمون بطرق المواصلات بين المدن الإسلامية وخاصة بين المدن ذات الصفة التجارية، فأقاموا خانات على طول الطريق لتأمينها ولتكون استراحات للتجار ودوابهم وأمتعتهم وبضائعهم، وقد كثر إنشاء هذه المؤسسات في الدولة الإسلامية[٢]، ولم يقتصر الأمر على الاهتمام بالطرق البرية وتعبيدها، بل امتد إلى الطرق البحرية فنجد السلطان محمد بن قلاوون يحفر خليج الإسكندرية لنقل البضائع التجارية بالمراكب من فرع دلتا النيل الغربي بمصر- فرع رشيد- عن طريقه مباشرة إلى الإسكندرية بالمراكب دون المرور ببوغاز رشيد لوجود عيوب ملاحية به تهدد حركة هذه المراكب[٣].

فضل الله تعالى بقاعًا اختصها بتشريفه، وجعلها مواطنًا لعبادته، وهي الكعبة الشريفة بمكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس، وأقاليم هذه البقاع هي أحد الأمثلة لأقاليم لها خصوصيتها الدينية الفائقة[٤]، وقد اهتم المسلمون بالطرق المؤدية لهذه الأقاليم، وظل المسلمون حريصين على أداء فريضة الحج وشعائرها منذ الأيام الأولى للإسلام. والحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة يؤديه كل مسلم ومسلمة مرة في العمر مع الاستطاع، غير أن رحلة الحج نفسها تغيرت على مر الزمن بسبب ما طرأ على الطرق ووسائل النقل من تطورات جذرية.

في القرون الماضية كلها وإلى عهد قريب نسبيًا، كان الحجاج يتحملون

١- أحمد كمال عبد الفتاح ومحمد سمير سعيد، الخصوصية في المجتمعات العمرانية الإسلامية قديمًا وحديثًا ص ٥٣ مجلدة المهندسين السنة ٤١ العدد ٣٦٩ ديسمبر ١٩٨٥ .

٢- أوقطاى أصلان آيا، فنون الترك وعمائرهم ص ٣٩٤ ترجمة أحمد عيسى، نشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية استانبول ١٩٨٧م.

٣- خالد محمد عزب، فوه مدينة المساجد، ص ١٥، طبع وتوزيع مؤسسة الأهرام، ١٩٨٩ .

٤- أحمد كمال عبد الفتاح وآخر، المرجع السابق ص ٥١، ٥٣ .

مشقة فائقة، إما خلال رحلة بحرية طويلة محفوفة بالمخاطر، أو رحلة برية في قيظ الصحراء اللافح بما ينطوي عليه ذلك من عطش وجوع وأخطار، وكان بعض الناس يقطعون رحلة الحج سيرًا على الأقدام وبعضهم على ظهور الدواب من خيل أو إبل.

وقد ارتبطت مكة المكرمة آنذاك بطرق مواصلات كانت تمتد إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وفى حالات كثيرة سلك الحجاج طرق التجارة القديمة المعروفة قبل الإسلام، وقد تحسنت طرق القوافل القديمة تلك تسهيلًا لسفر الحجاج إلى بيت الله الحرام، غير أن أبرزها جميعًا كان طريق الكوفة الذي أنشئ في عهد الخليفة أبي العباس السفاح، وهو الطريق الذي يعرف بدرب زبيدة تكريمًا للسيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، التي عنيت بتزويد هذا الطريق بالمرافق والتسهيلات[١]، ويحكى أنه لما عرض عليها نفقات عين الماء التي أجرتها إلى مكة، أخذت الدفاتر وألقت بها في النهر وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب[٢]، وقد تعهد خلفاء بني العباس تخطيط هذا الطريق وتمهيده وإقامة المرافق عليه.

بني هذا الطريق خصيصًا، فكان أحد طريقين يصلان العراق بمكة المكرمة وسهل بناء هذا الطريق على الحجاج قطع رحلة الألف ومائة وأربعين كيلو مترًا من الكوفة إلى مكة المكرمة أو على فرع منه إلى المدينة المنورة، إنها رحلة تشكل كثيرًا من المتاعب للمسافرين حتى وقتنا الحاضر.

وبالرغم من طول هذا الطريق، إلا أنه يوجد على امتداده من الأدلة التي تشهد على مجده الغابر وعلى كونه إنجازًا هندسيًا ومعماريًا شهده القرن الثاني الهجري (أي الثامن الميلادي).

ويعد درب زبيدة بهندسته الإسلامية البارعة أكبر الإنجازات التي

١- د. سعد بن عبد العزيز الراشد، الربذة صورة للحضارة الإسلامية في المملكة العربية السعودية ص ٨، نشر جامعة الملك سعود الرياض.

٢- حسن عبد الوهاب، المرجع السابق ص ٨٤.

شهدها العالم الإسلامي في إنشاء الطرق وهو يضاهي الطرق الكبرى في عصور الإمبراطورية الرومانية. ظل هذا الدرب مستخدمًا حتى عهد غير بعيد ولكن الطرق الحديثة والطائرات أودعته للتاريخ فاحتضنته رمال الصحراء مرة أخرى.

غير إننا نستطيع اليوم، بمساعدة العلم الحديث، معرفة الشيء الكثير عما كانت عليه حياة أولئك المسافرين الأول على الطريق إلى مكة المكرمة، ومن أبرز مواقع هذا الطريق الربذة، وهي موقع إسلامي في جنوب شرقي المدينة المنورة على بعد مسافة تزيد على مائتي كيلو متر.

وبالرغم من أن مواقع كثيرة على درب زبيدة كانت مدنًا واستراحات يلجأ إليها المسافرون في النهار والليل فيستريحون وينامون ويتزودون بالمأكل والمشرب والأعلاف لدوابهم، إلا أنه كانت للربذة سمات حضارية أخرى، يحتمل أنها كانت شبيهة من حيث التخطيط بالمدن الإسلامية في الأردن وسوريا والعراق كما أن تأثير جنوب الجزيرة العربية يبدو واضحًا فيها من حيث التخطيط المعماري والهندسي.

وكان للربذة نظام متقدم لجمع مياه الأمطار. ويدل حجم البركة الرئيسية في الموقع على أن الربذة كانت مأهولة بالسكان على مدار السنة وكانت بلدة كبيرة في عصور الإسلام الأولى[١].

١- يجري فريق من قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود بالرياض حفريات أثرية في موقع الربذة منذ عام ١٣٩٩ هـ، د. سعد بن عبد العزيز الراشد، المرجع السابق، ص ٨، ٩.



الفصل الثالث

مكونات المدينة الإسلامية

الحديث عن مكونات المدينة الإسلامية يطول ويتشعب ويمكن اختصار هذه المكونات في خمسة عناصر رئيسية هي:

١ – المسجد الجامع. ٢ – مقر وليّ الأمر والقاضي. ٣ – السوق.
٤ – الأحياء السكنية. ٥ – الأسوار والبوابات.

والعنصر الأخير تلاشت الحاجة إليه نتيجة للتطور الذي أدخل على وسائل الدفاع في العصر الحديث، ولهذه العناصر توابع لا تقوم إلا بها كالبساتين والساحات والميادين والمقابر وغير ذلك.

- المسجد الجامع ومقر ولي الأمر

لقد يسر الله للإنسان سبل الحياة، فالصلاة تجوز في أي مكان طاهر، وبناء المساجد أمر من الله سبحانه وتعالى، لجمع المسلمين في مكان واحد وعلى قلب رجل واحد ليذكر فيها اسمه. مكان يحميهم من التقلبات الجوية والظروف المناخية، فالجانب الوظيفي في تصميم المسجد لا يتعدى إيجاد الفراغ المناسب لعدد من المسلمين يقيمون فيه الصلاة، متجهين في صفوفهم المتراصة شكلًا طوليًا متعامدًا على اتجاه القبلة، لإطالة صفوف المصلين حتى يحظى أكبر عدد منهم بالصفوف الأولى، لما في ذلك من جزاء عند الله، فالمضمون هنا يحدد المسقط الأفقي الأنسب للتعاليم الإسلامية، الأمر الذي لا يتناسب مع المسقط الدائري أو المنحنى أو المسدس أو حتى المربع، فالعبرة هنا بالأسس العقائدية، وليس بالمراجع التراثية التي يرجع إليها عند تحديد الملامح التشكيلية للمبنى بعد استيفائه للمضمون، والملامح التشكيلية من ناحية أخرى تتحكم فيها طرق الإنشاء ومواد البناء مع التعبير عن الاستمرارية الحضارية للقيم الجمالية المتأصلة في المجتمع.. فالإسلام لا يرتبط بنظام خاص بالإنشاء بل هو دين كل مكان وزمان، يتفاعل مع التقدم العلمي والتكنولوجي للمسلمين في كل المجالات، بما لا يتعارض مع تعاليمه وقيمه. ومن ذلك بطبيعة الحال طرق البناء والتشييد، فمن

المستحب- استنادًا إلى كلام بعض الفقهاء- أن يقل عدد الأعمدة التي تقطع الصفوف، بل ويكون المسجد بدونها أكثر استحبابًا حتى يستطيع المصلون رؤية خطيب الجمعة دون عوائق من البناء. وهذا مضمون إسلامي آخر يحفظ للدعوة ووسائل وصولها إلى الناس بلا حوائل ولا يقيده بالقيم التراثية التي ظهرت في أزمنة معينة ومناطق معينة. ومن هنا يكون البحث عن المضمون سابقًا للبحث عن الشكل. ومن ثم، فإنَّ دراسة المساجد الأثرية تستهدف البحث عن الخيوط التي تربط الماضي بالحاضر لاستنباط المفردات المعمارية التي يمكن أن تتفاعل مع المبنى المعاصر[١].

والمضمون الآن في تصميم المسجد هو تهيئة الفراغ المعماري الذي يساعد المسلم على الخشوع والرهبة وهو واقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، وليس الفراغ الذي يبعث في النفس الانبهار، الذي يتعارض مع كثير من المساجد التراثية خاصة ما كان يتفاخر به الحكام والولاة. فالإسلام يدعو إلى بناء المسجد بناءًا قويًا ليس فيه مفاخرة أو تزيين، لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أمرت بتشييد المساجد) وقال ابن عباس عقب هذا الحديث: (لزخرفتها كما زخرفت اليهود والنصارى). وهذا القول من ابن عباس إما أن يكون قد تلقاه لفظًا ومعنى من النبي ﷺ ولم يرفعه الراوي.. وإما أن يكون ابن عباس قد أخذه من أحاديث أخرى كما في صحيح البخاري من حديث أبى سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله، قال: فمن الناس). وكحديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة وأم حبيبة وصفتا للنبي ﷺ كنيسة رأتاها بالحبشة، يقال لها مارية – وذكرتا ما فيها

١- د. عبد الباقي إبراهيم، المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية، ص ٨٠ نشر مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية القاهرة ١٩٨٦ .

من حسن التصاوير، فقال ﷺ: (أولئك كانوا إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة). لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسع المسجد النبوي للبناء: (أَكَنُّ للناس من الحر والقَرِّ ولا تحمر ولا تصفر) رواه البخاري. ففي هذا الأثر دلالة واضحة على أن الغاية من بناء المساجد هي درء الحر والبرد عن المصلين فيها. فيجب إبعاد كل ما لا يحقق هذه الغاية عن بيوت الله عز وجل.

ويلاحظ من تتبع مكانة المسجد الجامع بالمدينة على مر العصور الإسلامية أنه في صدر الإسلام كانت له المكانة الأولى التي تبلور حولها التكوين الطبيعى للمدينة باعتبار أن المسجد في ذلك الوقت كان هو مصدر التعاليم الإسلامية وملتقى الحاكم بتجمعات السكان. ومع مرور الوقت بدأت الشخصية الفردية للحاكم تظهر بالتدريج فظهر اهتمامه برفاهيته وحاشيته وجنده، فارتبط المسجد بعد ذلك بقصر الحاكم ودواوينه كما كان في المدينة الدائرية التي بناها المنصور. وبعد ذلك انفصل المسجد عن القصر الحاكم الذي استمر يأخذ مكانه المتوسط من المدينة ولم يعد المسجد الجامع بعد ذلك يمثل مركز الثقل لوسط المدينة. وتطور بعد ذلك الهدف من عمارة المساجد إلى أن أصبحت تمثل عملًا من أعمال التفاخر عند الحاكم كما مارسه المماليك الذين بنوا المساجد في شمال القاهرة أو كما تصوره محمد علي الذي بني مسجده الكبير بعد ذلك.. ليطل على مدينة القاهرة من قلعة صلاح الدين. وهكذا أصبح المسجد في الفترات الأخيرة من العصر الإسلامي لا يمثل بالضرورة مركز الثقل الذي تتبلور حوله المدينة الإسلامية. إن مكانة المسجد في المدينة تعبر عن مدى ارتباط الناس بالإسلام ديناً ودنيا[1].

١- د. عبد الباقي إبراهيم، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، ص ٣٣ مركز الدراسات التخطيطية والعمرانية القاهرة ١٩٨٢ ، بتصرف.

- **السـوق:**

لقد أباح الإسلام التكسب والتجارة ولكنه في الوقت نفسه حذر المسلمين من العواقب الوخيمة إذا ما أخلوا بالضوابط التي وضعها الدين للأسواق ومنها:

أولًا: أن الأسواق هي أبغض البقاع إلى الله تعالى لقوله ﷺ من حديث جبير بن مطعم، إن النبي ﷺ قال: (أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق). أخرجه أحمد والبزار وصححه الحاكم وإسناده حسن وأخرجه ابن حبان والحاكم من حديث عمر. وذلك لما فيها من حلف كذب وغش وتبرج ونحوه.

لكن هذا وجه تحذير من التمادي، وإلا فقد أجاز الإسلام ذلك وحبب التكسب والتجارة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[1].

والفرق أنه على المسلم أن لا يلهيه البيع والتجارة عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2].

ثانيًا: ومن ضوابط السوق أن يتعلم المرء أحكام السوق أو على الأقل أحكام التجارة التي يتعامل بها حتى لا يأكل هو وأهله من الربا والحرام، (كان عمر يضرب بالدرة من يقعد في السوق ولا يعرف الأحكام، ويقول لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا).

ولقد نتج عن ذلك ظهور مهمة «المحتسب» الذي يراقب أعمال السوق كما سنبينه تباعًا وكان التجار آنذاك ربما اصطحبوا معهم فقيهًا ليرجعوا

١- الفرقان: آية ٢٠.

٢- النور: آية ٣٧.

إليه في أحكام التجارة كما بين ذلك الكتاني في (تراتيبه) رحمه الله[1].

قال الشاعر:

لا تجلس في السوق حتى تعلما ما حل من بيع وما قد حرما

ثالثًا: ومن ضوابط السوق أن يتولى أعماله سادة الناس وأشرافهم وأصحاب الأدب والخلق والهمم العالية الصادقون حتى لا يتلف السوق، فقط مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالسوق فرأى عامة القائمين عليه من الموالى والنبط فقال قولته المشهورة: (لاتفتنكم هذه الحمراء عن دنياكم). وكان قد قال ذلك لما رأى إعراض الصحابة رضوان الله عليهم والعرب عن السوق فدعاهم للعودة إليه لما توافر فيهم من الصفات المطلوبة للعمل بالتجارة فقال: «والله لئن فعلتم (إن تركتم غيركم في السوق) ليحتاج رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم «[2].

وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد ترك العمل بالسوق لما فتح الله عليهم الأرض فضلًا عن أن بعض العرب يبغض العمل بالتجارة، ومع هذا يجب أن لا ننسى أن الرسول ﷺ قد عمل بالتجارة وكذا الصحابة مثل عثمان وأبي بكر وعلي وعمر رضي الله عنهم.

- **تخطيط الأسواق الإسلامية:**

بعد حركة الفتوح الإسلامية، حصل تطور في نمط حياة العرب، إذ ألفوا حياة الطمأنينة والاستقرار، فنشأت عندهم أسواق ثابتة، وبخاصة في المدن التي مصروها. فالمراكز الأساسية للحياة في المدن الإسلامية الجديدة هي، المسجد الجامع، دار الإمارة والسوق، وهو مركز الحياة الاقتصادية. ويظهر

١- الكتانى، التراتيب ص ٢٠ وما قبلها جـ٢ . قلت : في قولة عمر رضى الله عنه عن مخاطر تسليم السوق إلى هؤلاء الأعاجم متواجدة في زماننا هذا في كثير من أسواق العرب وكان أثرها أن احتاج الناس إليه فضلًا عن أن الأسواق قد دخلها أعمال الغش والجهل والغرور والله المستعان د. وليد المنيس المرجع السابق ص ٣٧ .

٢- الكتابنى، التراتيب جـ٢ ص ٧ . د. وليد المنيس، المنهاج في إحياء التمدن الإسلامي ص ٣٦ .

هذا التماثل واضحًا في كافة المدن الجديدة كالبصرة والكوفة، والفسطاط والقيروان، وواسط وبغداد، وسامراء وغيرها[1].

عند تشييد الكوفة جعلت الأسواق في ساحة وسط المدينة قرب دار الإمارة والمسجد الجامع، ولم يسمح لأحد بالبناء فيها، وبمرور الزمن امتد السوق من دار الإمارة إلى دار الوليد بن عقبة[2]، وكانت أسقف هذا السوق في بادئ الأمر مغطاة بالحصر، وظلت كذلك حتى زمن والي العراق خالد بن عبد الله القسري (١٠٥ هـ - ١٢٠ هـ)، ذلك أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك أولى اهتمامًا وعناية بالأسواق، حيث عقدت بالحجارة. وقد أثنى المقدسي على أسواق الكوفة لسعتها ودقة تنظيمها، ونشاط الحركة التجارية فيها ولأنها ملتقى القوافل التجارية القادمة من شبه الجزية العربية[3] حينذاك.

لقد وجدت ظاهرة التخصص في الأسواق التجارية الإسلامية منذ وقت مبكر، فصرنا نشهد بوضوح أسواق متخصصة ببيع نوع معين من البضائع، ففي البصرة مثلاً، كان أصحاب كل مهنة يجتمعون معًا في محل واحد مُكَوِّنِينَ سوقًا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير، منها- على سبيل المثال: سوق العطارين، وسوق الطعام، وسوق الغنم، وسوق القصابين، وسوق القداحين وسوق الصرافين وغيرها[4]، وتكررت صورة الشوارع التجارية بعد ذلك في كل مدن العالم الإسلامي، فقد عرفت مدينة بخارى الأسواق النوعية المنظمة والمنسقة جيدًا كسوق لأبي خاوز- أحد أقدم أسواقها، فقد كانت أسواق بخارى تثير الإعجاب لدرجة أنه لا توجد مدينة أخرى في وسط

١- د. حمدان عبد الحميد الكبيسى أسواق العرب التجارية ص ٣٣ نشر دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٩ .

٢- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك جـ٤ ص ١٩٣ دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

٣- المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧٧ بريل، ليدن ١٨٨٤ م .

٤- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ ٥٠ .

آسيا أو في الشرق بأكمله يمكن أن تفاخر بشيء مماثل[١].

وتكررت صورة الشوارع التجارية النوعية بعد ذلك في مدينة القدس في العصر العثماني، فظهرت الأسواق المسقوفة بالعقود والمرصوفة بالبلاط الحجرى مثل السوق الطويل وسوق الحلاجين وسوق الغلال وسوق البزارين وسوق العطارين، ومن أروع الأسواق المسقوفة السوق المسقوف في يامبول ببلغاريا التي أقامها الوزير خادم على باشا في القرن ٩ هـ، ١٥م[٢]. لقد شهدت المدن الإسلامية ازدهارًا تجاريًا منذ الفتح الإسلامي لبلاد أفريقيا وآسيا ووصفت بعض المدن بأنها مدن تجارية كرشيد في العصر العثماني وعدن ودمشق والبصرة....

وهكذا كان الشارع التجاري من أهم العناصر التخطيطية المشتركة في المدن الإسلامية القديمة في المشرق والمغرب وارتبطت بسكانها، وهي تعتبر مدخلًا هامًا في تخطيط المدن التجارية كأحد العناصر الهامة لربط المدينة الإسلامية المعاصرة بتراثها الحضاري. إن موقع السوق في المدينة الإسلامية يتفق والتركيب التجاري للمدينة الحديثة، وهذا يتطلب الحفاظ على موقعها القديم وتهيئة التسهيلات اللازمة لتطويرها.

- الرقابة على الأسواق:

لما فتح الله على المسلمين الأرض مشارقها ومغاربها، وكثر التعامل ودخلت الناس في الإسلام جاءت الحاجة لعمل (المحتسب) الذي كانت وظيفته ضبط أعمال السوق وأحكامه وذلك بعد أن كان الخلفاء يقومون بذلك بأنفسهم. كان هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣ هـ) لا يكتفي بما يعهد به إلى المحتسب والأعوان التابعين له، بل يراقب الأسواق بنفسه ليطمئن على

١- محمد بن ميرزا محمدوف كنوز العبقرية البشرية ص ١٩ نشر (وكالة نوفوستى) موسكو ١٩٨١.

٢- ميكل كيل العمارة الإسلامية في البلقان ص ٢٠ ترجمة نادية عبد السلام مجلة الثقافة العالمية العدد ٤٣ السنة ٨ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ نوفمبر ١٩٨٨.

أن الأمور تسير وفق المصلحة العامة[1]، وقد صنف العلماء كتبًا عظيمة في الحسبة وضبط أعمال الأسواق مثل الشيزري في (نهاية الرتبة) وابن الأخوة في (معالم القربة)[2].

وقد اتسعت أعمال الحسبة على الأسـواق لتتولى البناءات والخطط وتحديد مواقع التجارات والصنائع، فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهدم كير الحداد لما رأى أنه يؤذي الناس والسوق. بل وتعدى ذلك في نهاية الرتبة للشيزري بأن جعل لكل صنعة من يشرف عليها قال رحمه الله: ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة تحت وسع المحتسب جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفًا من صالح أهلها خبيرًا ببضاعتهم بصيرًا بغشوشهم وتدليساتهم مشهورًا بالثقة والأمانة يكون مشرفًا على أموالهم ويطالبه باختبارهم وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع.. فقد روى أن النبي ﷺ قال: (استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها....)[3].

كما جاء في كتب الحسبة أيضًا إشارات إلى خطط الأسواق وممراتها بالصورة المطلوبة التي تيسر على العباد أعمال السوق جاء ذلك في صدر كتاب (نهاية الرتبة) سابق الذكر عند حديثه عن سعة الأسواق وتسقيفها وممراتها وتوزيع أعمال السوق. فهو يوضح السبل التي يجب مراعاتها عند اختطاط الأسواق. يقول رحمه الله: (ينبغى أن تكون الأسواق من الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديمًا، ويكون على جانِبَي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء إذا لم يكن السوق مبلطًا. ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر

١- د . حمدان الكبيسى المرجع السابق ص ٤٧ .

٢- الشيزرى نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق د . السيد الباز العرينى، وابن الأخوة في معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق د. محمد شعبان وصديق عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب د. وليد المنيس المنهاج في إحياء التمدن الإسلامي ص ٣٨ .

٣- الشيزرى نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٢ .

الأصلي، لأنه عدوان على المارة يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس. ويجعل لأهل كل صنعة سوقًا يختص بهم وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق ولصنائعهم أنفق. ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فللمحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزارين لعدم المجانية وحصول الضرر»[١].

فهاهو رحمه الله يبين هذا الصورة التي يجب أن تكون عليها الأسواق من تنظيم وسعة وارتفاع لمراعاة حقوق الباعة والمشترين والناس كافة ولا شك أن القارئ يلاحظ القارىء دقة إشاراته وملاحظاته خاصة في مراعاة أن تكون الدكاكين على خطوط مستقيمة حتى لا تطغى على طرقات المارة. كما نلاحظ كيف راعى حقوق المارة حيث دعا إلى تبليط طرقاتهم وبصفة خاصة جانبي الطريق. وأجود من ذلك حرصه على تقسيم الصنائع في الأسواق منعًا للتضاد ولتسهيل مهمة المشتركين كما هي الحالة الموجودة في المدن الإسلامية. وأبرز إشاراته عندما فضل عزل الحدادين والخبازين عن أماكن باعة العطور مراعاة لطبيعة كل صنعة ودرءاً لتضرر إحداهما من الآخرى[٢].

- المحتسب والطب الوقائى بالمدن الإسلامية:

لقد راعى واضعو كتب الحسبة الشروط الصحية الواجب توافرها في الباعة في الأسواق كل حسب صنعته، وكان على المحتسب مراعاة هذه الشروط وتطبيقها بدقة يقول الشيزري رحمه الله في «باب الحسبة على الخبازين»: «ينبغي أن ترفع سقاف حوانيتهم وفتح أبوابها أو يجعل في سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك الناس، وإذا فرغ الخباز من إحمائه مسح داخل التنور بخرقة نظيفة ثم شرع بالخبز، ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه لأن في ذلك مهانة

١- المرجع السابق ص ١١ .

٢- د. وليد المنيس، التفسير الشرعى للتمدن، ص ٣٦، ٣٧ .

للطعام وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه وبدنه فلا يعجن إلا وعليه ملعبة – ثوب من غير كُمّ – أو بشت مقطوع الأكمام ويكون ملثمًا أيضًا لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين. ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين. ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين. وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفيقة – الكثيفة – كما أضاف ضرورة نظافة أوعية الماء وتغطيتها وغسل المعاجن وتنظيفها وما يغطى به الخبز وما يحمل عليه[1].

يقف الإنسان أمام هذه الدقة المتناهية في التخطيط الصحي والبيئي مشدوهًا خاصة إذا علمنا أنه قد مضى على كاتب هذه الكلمات حوالي ستة قرون. وقد أشار الشيزري بالملحوظات نفسها علي الصابين والحبوبين، والعطارين وغيرهم في ثلاثين باباً وثلاثين ابًا في كتابه، وما أحوجنا اليوم إلى عودة وظيفة المحتسب مرة أخرى إلى المدينة الإسلامية بعد أن وزعت مهامه على العديد من المسئولين كالمراقب الصحى ومفتش الأسواق والإدارات المحلية للمدن وبعض هؤلاء المسؤولين يفتقدون الدافع الديني لأداء وظيفتهم نظرًا لأن معظمهم نشأ في مدارس ومعاهد– لا دينية – ولا يدري أي منهم شيئًا عن أحكام الإسلام في الأسواق ولا غيرها من الأمور التي كانت مناطة بالمحتسب ومعاونيه، وإننا نأمل أن تعيد الحكومات تأهيل هؤلاء الموظفين تأهيلًا دينيًا مع وضعهم تحت إشراف مسئول واحد وهو المحتسب حتى لا تضيع المسؤولية بينهم وتظل مشتتة، إن وظيفة المحتسب– وهي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمرٌ تفتقده معظم مدن العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر، نتيجة لنقلنا النظم الغربية دون وعي، وإهمالنا لتراثنا الإسلامي وما فيه من تجارب وخبرات.

الأحياء السكنية:

١- الشيزرى، ص ٢٢ .

يكشف تخطيط الأحياء السكنية في المدينة الإسلامية عن قانون متماسك، لتتابع سلسلة هرمية لكل من المآوِي والمدخل، تستجيب لنماذج من العلاقات الاجتماعية ترتبط بخصوصية المجتمع الإسلامي. ونظام المدينة الإسلامية هو نتيجة طبيعية للتوازن بين التجانس والتباين الاجتماعي، في نظام اجتماعي يتطلب كلًا من فصل الحياة الأسرية، والمشاركة في الحياة الاقتصادية والدينية للمجتمع. ومن ثم تشكلت المدينة من نظام ثلاثي. الأماكن العامة، ونصف العامة، والخاصة. وتختلف كل من هذه الأماكن في مستويات مداخلها ومآويها.

١ – الأماكن العامة في المدينة: وهي التي تقع على جانِبَي الشارع التجاري للمدينة (قصبة المدينة) وتشمل: الأسواق المركزية للمدينة، والمتاجر الكبرى المغطاة والمكشوفة، وورش المهنيين، والمساجد الكبرى، ومجموعات الأسواق المتخصصة، والحمامات، وما إليها.

٢ – الأماكن نصف العامة: وهي التي تقع على جانِبَي الشوارع المركزية للأحياء المختلفة (قصبات الأحياء) والتي تتفرع من الشارع الرئيسي التجاري للمدينة وتشمل الأنشطة التجارية والحرفية للحى ومساجده وحماماته ومقاهيه، ويتخللها بعض الدور والمساكن، ومبانيها أكثر ارتفاعًا من تلك التي في المركز التجاري للمدينة (الأماكن العامة).

٣ – الأماكن الخاصة: وهي التي تقع على امتداد الحواري والمسالك المسدودة الضيقة أو المنعطفات والتي تتفرع من الشوارع المركزية للأحياء، وتشمل المباني السكنية التي تتميز بواجهات مبانيها قليلة الارتفاع والفتحات.

وقد تلاحظ وجود مظاهر للخصوصية في الصورة العامة للمدينة[1]:

١- التزام مباني الأحياء بارتفاع يكاد يكون ثابتًا. فيما عدا المساجد.

٢- تعد الأفنية وتداخلها بين مجموعات المباني وفي المباني، لاستقطاب حياة الناس إلى الداخل.

٣- انسياب الأسواق المغطاة وامتدادها خلال الكتلة العمرانية للمدينة، مشكلة محاور للحركة ولتلاقي السكان بين الأحياء المختلفة.

٤- تلاحم الأحياء المختلفة والمباني بعضها ببعض، معبرة عن التلاحم والترابط الاجتماعي في المدينة.

٥- تشعب مسارات الشوارع والدروب والطرقات في خطوط ملتوية منها أيضًا شجيرات من المسالك المقفولة لتوفير الحماية للمدينة.

يخترق الحي أو المجاورة شارع رئيس واحد في الغالب ويسكنه مجتمع متجانس عادة وقليل العدد نسبيًا، ويربط ما بين أفراده روابط دينية أو عرقية أو مهنية، ويتوفر لديهم شعور قوي بترابط الجماعة، وباحترام الواجبات والالتزامات المتبادلة بينهم. وأحياء المدينة ليست مقسمة بين الطبقات الاجتماعية. فالحي عالم مصغر، يعيش فيه الغني والفقير جنبًا إلى جنب، ويتشاركون في الجوامع والأسواق والحمامات والأسبلة. وقد اعتبرت سلطات الدولة الحي وحدة إدارية وكان له رئيسه ومجلسه. وفي أوقات الاضطرابات، اعتبر أيضًا وحدة دفاعية. وعلى الرغم من أنه

١- الخصوصية تعنى الذاتية والتفرد، وتعني احترام حرية الفرد المسلم وخصوصيته وحرية وخصوصية تفكيره، وعمله وسعيه، وسكنه، في حدود إطار متزن من التكافل الاجتماعي يهدف إلى إيجاد مجتمع سعيد، يستمد نظامه الحكيم من سنن الله الكونية، تنزيلًا كريمًا من فوق سبع سموات. هذه الخصوصية المرتبطة بالعقيدة ولا يفهمها إلا المسلم العالم المدقق الواعي والحريص على دينه.

د . مهندس أحمد كمال عبد الفتاح ومهندس محمد سمير سعيد، الخصوصية في المجتمعات العمرانية الإسلامية قديمًا وحديثًا . ص ٤٧، ٥٣، ٥٤ مجلة المهندسين السنة ٤١ العدد ٣٦٩ ديسمبر ١٩٨٩ .

يمكن اعتبار الحي وحدة اجتماعية مغلقة، بما يوفره لسكانه من الشعور بالاستقلال الاجتماعي والأمن، إلا أنه كان يوجد دائمًا توازن بين هذه الاستقلالية الاجتماعية والعزلة من ناحية، وبين الدور الذي تمارسه الأحياء في المشاركة في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية للمدينة ككل من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أنه قد تحرس بوابات الأحياء بالحراس في الليل في أوقات القلاقل، إلا أن الحي ليس محددًا تحديدًا معماريًا في الغالب، ويتصل اتصالًا عضويًا بالمباني المجاورة للأحياء الملاصقة، ويستطيع السكان أن يوطدوا علاقاتهم دائمًا.

- اتجاهان متباينان للتخطيط السكني:

لا شك في أنه لا يمكن التوصل إلى تخطيط حضاري للمناطق، إلا إذا كانت الخلية الأساسية الأولى في هذه التخطيط واضحة الرؤية وهي المساكن وسنتحدث عنها بالتفصيل، لافتين النظر إلى أن تحديد المناطق السكنية يحدده في التخطيط المعاصر اتجاهان متعارضان هما:

- الاتجاه الأول: ذو الكتل المعمارية المنفصلة بعضها عن بعض بواسطة ما يحتمه التخطيط، من ترك الفراغات حول الأبنية، فإذا اتصلت هذه الفراغات بفراغات الشوارع، تكونت مساحات كبيرة من الفراغات التي تكون كمية كبيرة من الضوء والحرارة لكل من في المنطقة. وهذا الاتجاه يكاد يكون سائدًا في معظم التجمعات السكنية في أنحاء العالم وخصوصًا في الدول الغربية التي كانت سباقة في اتباع هذا الاتجاه، وتبعتها بعض دول العالم، ومن بينها الدول الإسلامية، التي لم تحاول مناقشة صلاحية هذا الاتجاه لطبيعة بلادها.

إن هذا الاتجاه، يوجه حياة أهل المدينة إلى خارج مساكنهم، في حين أن الإنسان المعاصر أحوج ما يكون، بعد أن يقضى وقتًا طويلًا بالعالم الخارجي، أن يعيش في عالمه الخاص، ويرمي وراء ظهره كل المنغصات الخارجية.

- الاتجاه الثاني: ويمكن تسميته بالاتجاه الأصيل في التخطيط حيث يعتمد على ارتباط الكتل المعمارية بعضها ببعض، دون فراغات تفصل بينها، وإنما الفراغات الوحيدة بالإضافة إلى فراغات الشوارع، هي الأفنية الداخلية لهذه المساكن، كالمسافات الصغيرة (نافورات) المتبعة في المدن الإسلامية القديمة.

كما أنه استعمل هذا النوع من التخطيط على نطاق محدود في بعض مدن المناطق الحارة كهافانا والهند، ونجده أكثر اقتصادًا في استغلال الأرض فهو يعطي أكثر سطح مبني، مع توفير أكبر كمية من الظلال، ويقلل إلى حد كبير الضوء والحرارة. علمًا أن هذا الاتجاه يوجه حياة السكان إلى داخل مساكنهم. فتعيش كل أسرة وعائلة حياة مستقلة، كما لو كانت وحدة قائمة بذاتها، متمتعة بأسلوب معيشي سليم من الناحية الطبيعية والنفسية والاجتماعية.

-مميزات الاتجاه الأصيل في التخطيط:

أ- **حرية المسقط الأفقي:** فالمخطط هنا له الحرية الكاملة في عملية الإبداع الفنى، من ناحية أطر الشوارع وعرضها، والساحات الصغيرة المتفرعة منها وإليها، وبالتشكيل الجمالي، الذي لا يحكمه إلا الحس الفني الخلاق، كما يحقق له حرية تحديد مساحات الأرض المخصصة للبناء حسب المتطلبات المختلفة للناس.

أما وسائل النقل كالسيارات العامة والخاصة فقد حددت لها مواقف خاصة تقع في أطراف الأحياء السكنية، وهذا ما يوفر الحد الأدنى للسكان من مزاولة رياضة المشي.

أما وسائل النقل الاضطرارية كالإسعاف والإطفاء وبعض عربات الخدمات فباستطاعتها الوصول إلى أفضل المواقع، لتحقيق مهمتها بعد دراسة مستفيضة من المخطط.

ب- **عدم الرقابة**: إن حرية المسقط الأفقي، تعكس بدورها، عدم الرتابة فيه، وفى المساقط الرأسية للشوارع، فالسائر بين الشوارع، لا يشعر بالملل، لأنه باستمرار يشعر بالتغير في الشارع والمساحة، فتارة يسير بممرات ضيقة، تتسع رويدًا رويدًا، لتضيق، ثم تتفتح على ساحة جميلة، أو نافورات تجدد النشاط إلى جانب رؤية السماء بين الحين والآخر... ثم إن تلاحم بعض الأبنية، ينشئ الكثير من التشكيلات الجميلة الرائعة.

ج- **عدم المبالغة في الرؤية المنظورية**: نظرًا لعدم حتمية امتداد الشوارع إلى مسافات طويلة، من أجل تسهيل حركة المرور فإنه يتيسر للمخطط إنهاء الشوارع أو إعطافها، وبذلك فإن الإنسان يحدد رؤيته المنظورية داخل إطار إنساني معقول وجميل. وهذا بخلاف الرؤية المنظورة اللانهائية في المدن الحديثة.

د- **الأمان**: لا شك بأن تصميم هذه الشوارع بأشكالها المختلفة، يوفر الأمان للأطفال ولكبار السن والمقعدين، ويؤمن لهم حرية الحركة، بينما هم في المدينة الحديثة المفتوحة نحو الخارج، سجناء في مساكنهم، لا يستطيعون التجول، خوفًا من حوادث قد تقع نتيجة لجنون حركة المرور.

هـ- **حرية اختيار خامات الشوارع والساحات**: إن عدم وجود حركة مرور إلى وبين الشوارع السكنية، تعطى حرية كاملة في اختيار الخامات والمواد الأولية، التي تغطي بها الشوارع والساحات، بما يتلاءم مع الخامات المستعملة في واجهات المساكن، ويجعل الكتل المعمارية مع الشوارع تشكل وحدة جمالية متناسقة بعيدة عن استعمال الأسفلت كمادة مفروضة.

و- **الساحات ودورها الاجتماعي**: لا شك أن الأمان الذي توفره الساحات الصغيرة، الموزعة بين الأحياء السكنية، وخاصة إذا ما عولجت لتكون أشبه بمتنزهات صغيرة، لها أكبر الأثر في إيجاد حياة اجتماعية وثقافية بين سكان المنطقة السكنية، وخاصة بين كبار السن، الذين يملون الوحدة في غرفاتهم.

ي- الانتقال المنطقى بين الشارع والمسكن: عندما يجتاز الإنسان المعاصر الشارع العريض، ليصل إلى مسكنه، الذي لا يتعدى (٨٠ مترًا مربعًا) يشعر بضيق في النفس في عالمه الصغير، بينما لو سار في المدينة القديمة، وشوارعها الضيقة، ليصل إلى مسكنه الرحب الواسع فكأنه يملك العالم بأسره[1]، وبهذا نجد أن معالجة تخطيط الأحياء والمناطق السكنية في المدينة الإسلامية الحديثة بأسلوب مدروس، على أساس انفتاحها على الداخل، أمر لا تكتنفه أي مصاعب أو عوائق، اللهم إلا اقتناع المسؤولين عن التخطيط بهذا الاتجاه، وتنفيذه في المناطق الحديثة والمدن الإسلامية، التي تزداد اتساعًا بصورة مذهلة، نظرًا لازدياد هجرة السكان، وما يتبعها من تجمع سكاني كبير في المدن المكتظة. وكم كنا نتمنى أن نرى مثلاً أثناء توسع مدن الكويت والدوحة والقاهرة والدار البيضاء وجدة وبناء مناطقها السكنية (لذوي الدخل المحدود) أن تتجه في هذا الاتجاه، وتوفر الكثير من الراحة النفسية لأبنائها.

- **المساكن:**

يرتبط المضمون الإسلامي لتصميم المسكن بالتعاليم الإسلامية التي تختص بحياة الأسرة وأسلوب معيشتها، بصفتها النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، وللبيت في الإسلام حرمته وخصوصيته، فلا يتطلع أحد إلى ما فيه أو من فيه. وقد شرع الله حرمات المسكن ونهى عن التعدي عليه. هكذا اختص الله المسكن بالرعاية و الاحترام، ليس لما هو عليه كمعمار، ولكن لمن هم فيه. فالمسكن في المنظور الإسلامي يعتبر وحدة اجتماعية لا ينفصل فيها البناء عن الأسرة التي تقيم فيه. بل المضمون الإسلامي لمتطلبات الأسرة المسلمة هو الذي يحدد الفراغ الداخلي للمسكن، فقد

١- أسمهان صوفان الحي السكني في المدينة العربية المعاصرة ص ٧٩، ٨٠، ٨١ بحث في كتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، إصدار معهد إنماء المدن، الرياض ١٤٠١ هـ.

كان يبنى من الداخل إلى الخارج وليس العكس، إذ كانت الأسرة تحدد متطلباتها السكنية مع البناء أو الحِرَفِي في حدود إمكانياتها المادية. ويعني ذلك وجود مشاركة فعلية بين صاحب المسكن والمعماري أو الحِرَفِي في بناء المسكن. وبتطويع هذا المبدأ للمتطلبات المعاصرة، فإن بناء المسكن النواة في المناطق الجديدة يمكن أن يكون مدخلًا مناسبًا للمشاركة الشعبية في الإسكان. كما أن المسكن القشري، الذي يقتصر على الفراغ المفتوح ويترك لساكنه أن يستكمله بمعرفته وتبعًا لاحتياجاته وفى ضوء إماكانياته، يعد مدخلًا آخر مناسبًا للمشاركة الشعبية في الإسكان. والعمل اليدوي هنا أمر هام ووارد يحض عليه الإسلام ويدعو إليه حتى ولو كان صاحبه قادرًا على استئجار غيره للقيام به. فقد كان الرسول ﷺ يعمل بيديه.. فالهدف ليس فقط استثمار طاقة الإنسان في البناء إذا توفر الوقت المناسب ولكن بناء الإنسان المسلم بناءًا ذاتيًا حتى لا يركن إلى الغير في أداء أعماله.

والمضمون في تصميم المسكن الإسلامي لا يقتصر على الجانب الوظيفي أو الآلي فقط، كما تدعو إليه بعض النظريات الغربية، لكنه تعبير شامل لمواجهة المتطلبات الحياتية للأسرة في ضوء التعاليم والقيم الإسلامية[١].

يقول الله عز وجل في محكم آياته: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الآية ٢٧ سورة النور)، فقد شرع الله سبحانه وتعالى الاستئذان قبل دخول بيوت الغير، ولذا نجد في المنازل القديمة مطرقة الباب على الأبواب الخشبية، وهي مطرقة معدنية، البسيط منها يتكون من لوحة معدنية فوقها لوحة أخرى ترتبط بمفصل يتحرك[٢] ويطرقها الزائر

١- د. عبد الباقى إبراهيم، المنظور الإسلامي للنظرية المعمارية، ص ٨٤، ٨٥ نشر مركز الدراسات التخطيطية والعمرانية القاهرة ١٩٨٦ .

٢- د. غازي رجب محمد، البيوت القلاعية في اليمن، ص ١٦١ مجلة سومر مجلد ٣٧ . ١٤٠١ هـ .

ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بالدخول يرجع من حيث أتى، وقد استبدلت المطرقة في عصرنا الحاضر بوسائل أخرى حديثة غير أن ما ينقص المسلمين اليوم آداب الزيارة.

تبدو المنازل الإسلامية بوجه عام من الخارج بسيطة متشابهة ويغلب على جدرانها اللون الأبيض كما في منازل غرناطة[١].

وأغلب مداخل البيوت القديمة منكسرة بزاوية ٩٠ درجة لمنع رؤية أهل البيت من الزقاق عن طريق الباب المفتوح[٢]، وهو ما يوفر الخصوصية لأهل البيت وقد استعملت هذه المداخل المنكسرة في منازل الفسطاط[٣] وبغداد[٤] على سبيل المثال، ويفضي المدخل عادة إلى فناء يتوسط المنزل، ويعتبر الفناء الداخلي محور النشاط الرئيسي في المنازل، وهو يضمن مميزات عديدة للمنزل من مثل:

المناخ الوضعي: للحصول على خفض في درجة الحرارة داخل الفناء فإن ذلك يتأتى نتيجة الظلال الناتجة عن تقابل أضلاع الفناء، ووجود المسطحات المائية التي ينتج عنها تبخير – نافورات – يقابله خفض في درجات الحرارة وانعكاس جزء من الأشعة مما يقلل الامتصاص لأشعة الشمس الحرارية وكذلك وجود المزروعات وهي عامل رئيسي في تلطيف الجو.

ولإحداث تهوية جيدة بدون تلوث، نجد أن الفناء بدرجة حرارته المنخفضة يكون منطقة ضغط، وأن الخارج (الشارع) سيكون منطقة تفريغ (ضغط منخفضة) وتبعًا لذلك سيكون هناك تيار هواء مستمر من الفناء

١- د. يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٢٤ المؤسسة الجامعية بيروت ١٤٠٢ هـ.

٢- د. إحسان فتحي وجون وارن، البيوت التقليدية في بغداد، ص ٧٦. مجلة المدنية العربية – العدد ١٧ – السنة ٤ شوال ١٤٠٥ هـ.

٣- د. أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، ص ٩ مجلة المتحف العربي السنة ٤ العدد الأول ١٤٠٩ هـ.

٤- د. إحسان فتحي المرجع السابق ص ٧٦.

إلى الشارع وبالطبع ستكون التهوية بدون أي تلوث علاوة على تلطيفها للجو الداخلي وذلك يكون بعد عمل الفتحات المناسبة التي تضمن التهوية السليمة لأجزاء المبنى.

ويضاف إلى ما سبق الدور المهم الذي يمارسه الفناء في الحفاظ على الهواء البارد الذي يتبقى من الليل ويتسرب إلى سلك الجدران وسقوف السطح، مع ملاحظة قلة استعمال النوافذ الخارجية، واستعمال السراديب تحت الأرض التي تمتص الحرارة أو الرطوبة ببطء، إضافة إلى التصاق البيت ذاته من ثلاث جهات مع البيوت المجاورة مما يقلص تعرضه لأدنى حد ممكن من أشعة الشمس، وتدل القياسات الحرارية الموقعية على أنَّ التفاوت بين السطح والسرداب – تحت الأرض – في بعض البيوت التراثية في الكاظمية قد بلغ أكثر من عشرين درجة مئوية، وقد سجل فرق حراري قدره ١٨ درجة مئوية بين السطح والفناء الداخلي في منتصف النهار صيفًا وقد يزداد هذا الفرق الحراري بمقدار أربعة درجات في حالة تغطية الفناء بقطع من القماش من الأعلى. إن سمك الجدران في البيت البغدادي، والتي تبلغ أحيانًا مترًا، قد ساعد على زيادة ما يسمى بـ (التأخر الزمني) للحرارة إلى داخل الغرف حيث سجل في نفس الدورة زمنًا يتراوح من ٧ إلى ١٢ ساعة[١].

لقد تميزت المنازل الإسلامية بأنها، في تكوينها وهندستها، شديدة الانسجام مع ظروف المناخ. ويلاحظ هذا في اتجاهات هذه المنازل؛ ففي دمشق مثلاً يمتد المنزل بشكل مستطيل من الشمال إلى الجنوب منحرفًا ٢٠ درجة نحو الغرب، وذلك لكي يستفيد هذا المنزل من أشعة الشمس الجنوبية ويتحاشى الرياح الشمالية والغربية[٢].

١- د. إحسان فتحى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

٢- د. عفيف بهنسى : الشام لمحات آثارية وفنية ص ٥٦ دار الرشيد – بغداد ١٤٠٠ هـ .

ويتصل بالبيئة المناخية ابتكار انتشر استعماله في جميع الدول الإسلامية على اختلاف أنواع مناخها، وهو المعروف بالملقف ويتكون من فتحة في سقف الوحدة المعمارية سواء كانت قاعة أو إيواناً أو حجرة، وغالبًا ما يكون ذلك السقف من الخشب، ويوضع فوق تلك الفتحة ما يشبه صندوقًا من الخشب له جانبان مثلثا الشكل وغطاء مائل ويترك الضلع الرابع مفتوحًا مواجهًا للاتجاه الذي منه النسيم في معظم أوقات السنة وبخاصة في أيام الصيف، وينتقل ذلك الضلع المفتوح تيارات الهواء فتتدفق منه وتصطدم لإغطاء المائل وتنحدر من فتحة السقف إلى المكان الذي تعلوه وتحدث تلطيفًا ملموسًا في جوه، ومن السهل الإحساس بتلك التيارات إذا ما وقف الإنسان تحت تلك الفتحة وكان يراعى طبعًا إمكان التحكم في غلق وفتح تلك الفتحة عند اللزوم إذا اشتد البرد.

ولا يدخلنا شك ما في أنه من السهولة تطوير فكرة الملقف والانتفاع به في جميع العمائر الحديثة على هيئة أنابيب جدارية مثل تلك التي تعد للمدافئ في البلاد الباردة، بحيث تعالج فتحة الأنبوبة منها داخل الوحدات المعمارية وفى خارج الوجهات في قوالب معمارية وزخرفية ذات طابع إسلامي.

ويا حبذا لو قرن عمل الملقف بالسلسبيل الذي سيأتى شرحه في الفقرة الموالية بحيث تسقط التيارات الهوائية فوق السلسبيل فتحدث تبريدًا مضاعفًا لا يقل كثيرًا عما تحدثه أجهزة التبريد الصحراوية. وبخاصة في المناطق التي تتميز بجفاف المناخ، أما الابتكار الإسلامي الصميم الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة وهو المعروف بالسلسبيل فقد استخدم في الدور والقصور في كل من مصر والشام كما استخدم في الأسبلة التي انتشر بناؤها في القطرين وبقيت منه عدة نماذج تؤرخ للعصر المملوكي، كما يحتمل أنه كان معروفًا في أقطار أخرى من العالم الإسلامي على تلك الهيئة أو على أشكال أخرى.

ويتكون السلسبيل من الشاذروان وهو لوح من الرخام أو الحجر الصلب وضع مائلًا على جدار في صدر الحجرة أو القاعة أو الإيوان، وكان ينقش سطح اللوح بزخارف دقيقة كثيرة التعاريج تتراوح درجات أعماقها، وذلك لينساب الماء منحدرًا في صنبور غالبًا ما كان من الرصاص أو النحاس، ويسيل الماء متعرجًا في القنوات بين تلك الزخارف المحفورة فيتعرض للبخر وتنقص درجة حرارته، وبالتالي درجة حرارة المكان، نحوًا من ست درجات مئوية وربما إلى أكثر من ذلك، ولو اقترن عمل السلسبيل بعمل الملقف كما ذكرنا في الفقرة السابقة لوصلت درجت التبريد إلى نحو عشر درجات مئوية.

واستخدم السلسبيل لتبريد الماء في الأسبلة التي كانت تشيد لشرب الناس في الطرق العامة، بل هو العنصر الأساسي في عمل تلك الأسبلة.

ونقترح إعادة استعماله في الوقت الحاضر والمستقبل، ويمكن الاستغناء به وبالملقف عن الأجهزة الآلية والكهربية الباهظة التكاليف، وبخاصة للمجتمعات التي ترهقها أسعار تلك الأجهزة. هذا ومن الممكن إنجاز فكرة السلسبيل والملقف في قالب معماري جذاب يزيد من الجمال والبهجة في التصميمات الداخلية لوحدات العمائر[1]، وقد استخدمت الملاقف بنجاح في مباني جامعة قطر.

- الإنارة السليمة: تعتمد الإنارة الداخلية لأى جزء من المبنى على اتجاه الفتحات وسطحها والأشعة المنعكسة من الأسطح القريبة. والإنارة السليمة في مكان ما هي أن تكون درجة الإنارة مناسبة وموزعة توزيعًا عادلًا على مسطح المكان بدون وجود مناطق مظلمة الأركان البعيدة. ويتضح أنه يمكن التحكم في الإنارة في حالة الفناء الداخلي بحيث يمكن الاستفادة من الأشعة

١- د. فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ص ٢٥٥، ٢٥٦ نشر عمادة شئون المكتبات – جامعة الملك سعود – الرياض ١٤٠٢ هـ .

المنعكسة حتى نحصل على التوزيع المناسب للغرض المطلوب[1].

- الهدوء: لا شك أن معدل الضوضاء في المدن الحالية أصبح يهدد الصحة النفسية للسكان، والمصدر الرئيسي للضوضاء هو الشارع لكثرة مرور السيارات والعربات باختلاف أنواعها واستعمال آلات التنبيه المزعجة. وحتى في البلاد التي أمكن منع استعمال آلات التنبيه يوجد بها عددٌ كبيرٌ من المحركات التي تعتمد في تبريدها على الهواء أصبحت وحدها مسئولة عن الإزعاج وتنقل ٧٠٪ من الضوضاء إلى داخل المباني عن طريق الفتحات المباشرة على الشارع. وبالطبع في حالة المباني ذات الفناء ستكون الفتحات أقل ما يمكن على الشارع وبالتالي فإن انتقال الضوضاء يكون بشكل محدود لا يُقارن بأي حال بالمباني المطلة على الشارع والتي تعتمد عليها في الإنارة والتهوية[2].

- الخصوصية: من أهم الأمور التي تميز السكن هي تمتعه بالخصوصية وهي من التقاليد الإسلامية الأصيلة التي يجب المحافظة عليها.

ولا شك أنها كانت من العوامل الرئيسية الموجهة في اختيار الفناء كأساس للتخطيط للمنازل الإسلامية، والمتعمق في دراسة النواحي الاجتماعية المترتبة على هذا التخطيط يجد أن الفناء يمارس دورًا هامًا كمركز للنشاط الاجتماعي للعائلة. فهو يربط بين أفراد الأسرة ويمثل المكان المناسب للأنشطة الاجتماعية المختلفة مع الاحتفاظ بالخصوصية كاملة في جميع الأحوال[3].

- العلاقة الجيدة بين الداخل والخارج: في التخطيط الغربي للمدينة المعاصرة نجد أن تكدس المباني على جانِبَي الشارع جعل أغلب الفتحات

١- على بسيوني، الفناء كعنصر هام في المدينة العربية ص ٨٧ بحث في كتاب المدينة العربية .

٢- المرجع السابق ص ٨٨ .

٣- المرجع السابق ص ٨٩ .

لا تحقق الفائدة التي صممت من أجلها فالفتحة علاوة على كونها مصدرًا للإنارة والتهوية للفراغ في ذات فوائد كثيرة منها أنها تربط الداخل بالخارج. وهذه العلاقة هامة جدًا من الناحية النفسية للإنسان إذ إنها هي التي تربطه بالطبيعة وقد أدى انفصال الإنسان عن الطبيعة خصوصًا في الفترة الأخيرة التي طغت فيها غابات الخرسانة المسلحة على جميع المناطق المحيطة به إلى إصابته بكثير من الأمراض النفسية أهمها الاكتئاب. وفى التخطيط الإسلامي القديم نجد أن الفناء كان يمتاز بكثرة الخضرة والزهور والمياه الهادئة التي تمر في قنوات صغيرة تكون كلها صورًا جميلة مصغرة للطبيعة كما في منازل فاس. وقد أدى ذلك إلى زيادة مسطح الفتحات المختلفة للفراغات المحيطة بالفناء مما أدى إلى تداخل الخارج بالداخل[١].

طوِّر تخطيط المنازل في العمارة الإسلامية إلى أن أصبحنا نرى بوضوح مكونات هذه المنازل في مراحلها المختلفة التي مرت بها، وقد صيغت هذه المكونات صياغة إسلامية، فخصصت أقسام خاصة بالضيوف من الرجال الذين ينزلون ضيوفًا على صاحب البيت، وهذه الأماكن غالبًا ما تكون منفصلة عن باقي وحدات المنزل وكانت تزود بالملحقات والمرافق والممرات التي تكفل عدم اختراق المنزل، وقد عرفت أماكن استقبال الضيوف في المنازل بالسلاملك.

وفى منازل رشيد على سبيل المثال، خصص الطابق الأول العلوي لاستقبال الضيوف، وعند بداية الطابق الثاني العلوى ينتهى السلم الصاعد إلى المنزل من الطابق الأرضي ليبدأ سلم آخر من داخل الطابق الثاني إلى الطوابق الأخرى وهو ما يعكس فكرة عزل طوابق المنزل التي تختص بصاحب المنزل وعائلته عن طابق الاستقبال، وفى حالة نقل الطعام للضيوف من الطوابق

١- المرجع السابق ص ٨٩ .

العلوية إلى الاستقبال يتم ذلك عن طريق سلم سري في إحدى الحجرات كما في منزل رمضان. حيث تضع النساء الطعام وتعود إلى مكانها، وبعد تجهيزه في حجرة الطعام ينتقل الضيف إليها ليرى الطعام جاهزًا بها وهو لا يدري من أين أتى هذا الطعام.

ونرى في منازل رشيد ابتكارًا جديدًا آخر في غاية الطرافة يسهل نقل الطعام من الطوابق العلوية إلى طابق الاستقبال، وهو «دولاب المناولة» وهو دولاب عبارة عن رفين من الخشب يدوران على محور خشبي، ويوضع عليهما المشروبات والمأكولات ثم يدار الدولاب من الخارج إلى داخل الاستقبال ليقدم صاحب المنزل لضيوفه ما وضع على رفوفه، وهذه الفكرة طبقت بمنزلين برشيد أحدهما مازال موجودًا وهو منزل البقروالي، والآخر اندثر وهو منزل جبري. وقد استخدمت هذه الفكرة في المطاعم والفنادق الغربية لعزل المطبخ عن صالة الطعام ونقلناها نحن عن الغرب دون أن ندرى أنها فكرة إسلامية أصيلة.

ولم ينس المهندس المسلم الحالات التي قد تستدعي وجود المرأة في طابق الاستقبال لشأن يتعلق بها يناقشه الرجال مثل حوادث الخطبة والميراث وغيرها، لذا فقد صممت ممرات أعلى قاعات الاستقبال ووضعت عليها أحجبة من الخشب المخروط، لكي ترى المرأة وتسمع من خلالها ولا تُرى، ومثل هذه الممرات انتشرت في المنازل المملوكية بالقاهرة.

ولم يقتصر هذا الأمر على تخصيص طابق لضيوف الرجال فقط، فقد وجد بالمنازل الإسلامية قاعات خصصت لنساء المنزل وزائراتهن[1].

لقد حرص المسلمون على توفير الراحة لضيوفهم، وبصفة خاصة الراحة النفسية، ولذا نجد في المنازل اليمنية القديمة عنصرًا معماريًا هامًا يوفر

١- د. فريد شافعي المرجع السابق ص ٧١.

تلك الراحة وهو المفرج حيث يخصص أعلى طابق في البيت اليمني لاستقبال الضيوف والاجتماعات والراحة ويشرف عادة على المدينة ومناظرها الطبيعية ويسمى هذا المكان بـ (المنظر أو المنظرة) ويسمى أيضًا (بالمفرج) الذي يمتاز بسعة نوافذه التي تتيح للجالسين التمتع بمباهج الطبيعة. كما يسمى أحيانًا باسم «الغرفة الكبيرة» لأنها أكبر غرف الدار. ولم يقتصر بناء المفرج على الطبقة العليا من الدار بل بني مستقلًا وبأبواب واسعة في حدائق المنزل يطل على نافورة محاطة بالأزهار والأشجار. ويمارس المفرج دورًا هامًا في المجتمع اليمني فهو غرفة استقبال الضيوف ومجلس إقامة الحفلات. لذا ينصب اهتمام صاحب المنزل عليه فيعنى بتأثيثه وتزيين جدرانه بالمفارش والأطباق والأواني. ويفتح في جدران المفرج كوى ونوافذ متعددة وتزين جدرانه بزخارف جصية وبصفين من النوافذ العلوية[1].

ولم يقتصر الاهتمام على السلاملك فقط بل شمل الحرملك، فقد خصص في بعض المنازل مدخل وسلم مستقلان يؤديان إلى الحرملك مباشرة كما في منزل التوقاتلي برشيد، وفى مواجهة متطلبات المعيشة لأفراد الأسرة في مواجهة نمو أفرادها من الأولاد والبنات، ومن توجيهات الرسول ﷺ «علموا أبناءكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع» (رواه البزار عن أنس بن مالك)، الأمر الذي يستدعى توفير المرونة في تصميم غرف النوم بحيث يمكن اختلاط الأولاد والبنات حتى يبلغوا الحلم ثم يمكن الفصل بينهم. وإذا لم يتوفر ذلك بالمساحات الإضافية فإن تكنولوجية البناء يمكن تطويعها للتحكم في التصميم الداخلي واستغلاله أقصى استغلال وتوفير المرونة اللازمة لمواجهة متطلبات الأسرة المسلمة توفيرًا لمالها الذي هو جزء من مال المسلمين. وقد روعي في المنازل الإسلامية أن تكون حجرة نوم رب الدار في أقصى مؤخرة الدار أو في طوابقها العلوية، وأن تكون لها خصوصيتها المرتبطة بتعاليم الإسلام

١- د. غازي رجب، المرجع السابق ص ١٦٣ .

وآدابه التي لا تسمح بالدخول إليها من الأبناء إلا بعد الاستئذان وفى أوقات محدودة.

ومن المبتكرات المعمارية الإسلامية التي انتشر استعمالها في جميع الأقطار الإسلامية وتتميز بالجدية والواقعية من ناحية وبالطرافة والجمال من ناحية أخرى، العنصر المعروف بالمشربية، وهي ستائر وأحجبة من الخشب المخروط والمعشق مع بعضه البعض وفي تكوينات خشبية غاية في الطرافة، برع في عملها الفنانون المسلمون في جميع البلاد، وهي تستخدم في تغطية النوافذ، ويرجع أقدم مثل ما زال قائمًا من مقصورة جامع القيروان والتي تؤرخ بـ(٢٤٩ هـ، ٨٦٣ م)، ولا نظن أن المشربيات في حاجة إلى تعريف أو وصف فهي منتشرة ومألوفة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وما نزال نشاهد أمثلة لا حصر لها في الأحياء القديمة من المدن العريقة، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والقاهرة ورشيد وتونس وغيرها من مدن العالم الإسلامي، في شرقه ووسطه وغربه.

وبقاء تلك الأمثلة من المشربيات لخير دليل على الفوائد الكبيرة التي يجنيها الناس من استعمالها في العصور الحديثة. إذ إنها تسمح بمرور الهواء ثم تلطيفه مع كسر حدة الضوء وشدة الحرارة الناتجة عن ضوء الشمس المتوفر في أغلب البلاد الإسلامية.

أضف إلى ذلك ما كانت تقوم به من حفظ حرمة أهل الدار من أن يجرحها الغرباء أو المارين في الطرق، أو زوار الدار من الرجال.

وتتخذ المشربية أشكالًا مختلفة، بعضها بارز عن وجه الجدار كالشرفات، أو يستوي معه بغير بروز، وهي تتفاوت في أحجامها وتصميماتها، كما أنها في أحيان كثيرة تزود بضلف من الزجاج والخشب لمنع تسلل البرد والتيارات الهوائية في بعض المواسم.

ومن الخسائر التي أحدثتها التقاليد الغربية بالعمارة الإسلامية أنها أغرت الناس بالاستغناء عن المشربيات مثل غيرها من العناصر والمبتكرات الإسلامية التي تتماشى مع ظروف البيئة، وليست هناك أية صعوبات أو موانع تعوق عودة استعمال تلك المشربيات بعد تطويرها لتتفق مع الخامات وأساليب البناء الحديث، فإن البيئة المناخية ترحب بذلك أكبر ترحيب، ولا بأس في ترك استخدام الخامات التقليدية مثل الخشب واستخدام مواد مصنعة مما ينتج بكميات تجارية لتخفيض تكلفتها، مثل البلاستيك أو اللدائن، ومثل الخشب المضغوط، أو الألياف الزجاجية، أو الألومنيوم الملون أو غير ذلك من المواد.

كذلك يمكن غلق الفراغات التي تشغلها المشربيات بلوحات من الزجاج أو الخشب أو الألومنيوم للتحكم في مرور الهواء عند الحاجة.

هذا، ومن البديهي أن يقتصر استعمالها على العمائر السكنية الخاصة وشبه الخاصة، وربما امتد إلى أنواع أخرى من العمائر العامة والتجارية. ومما لا شك فيه أن تغطية الفراغات الكبيرة بالمشربيات يفضل كثيرًا تغطيتها بمسطحات من المعدن والزجاج في بلاد تشتد فيها حرارة الشمس[1].

ومن العناصر التي استخدمت في المنازل الإسلامية الرواشن ويقصد بها الخرجات التي تستخدم للبروز بالعمارة وزيادة سطح الأدوار العليا،

١- د . فريد شافعي، المرجع السابق ص ٢٥٦، ٢٥٧، وقد أجريت العديد من الدراسات حول المشربيات وأشكالها وتكويناتها من الخشب الخرط ومنها :

- شادية كشك، أشغال الخشب في العمائر العثمانية، رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة.
- محمود أحمد درويش، عمائر رشيد الأثرية وما بها من التحف الخشبية، رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة .
- د. ربيع حامد خليفة، فنون القاهرة في العهد العثماني، مكتبة نهضة الشرق القاهرة ١٩٨٤ م .

وتطل على الشارع وواجهة الدخول[1]، وتستخدم لجلوس أفراد العائلة وقت الراحة، وتكون مغطاة كلها بالخشب الخرط، وهذه الخرجات تطورت في يومنا هذا إلى الأسوأ فهي ما نعرفه اليوم بالشرفات (البلكونات) والتي نراها مبنية بالعمارات الشاهقة إلى منتصفها فقط ونصفها العلوي مكشوف كله، لتكشف الواقف بها، بعد أن كانت بالأمس القريب عاملًا لحفظ خصوصية أهل المنزل وفي نفس الوقت تساعد على كسر حدة أشعة الشمس وتلطيف الهواء، وقد جاء هذا التطور السيئ للتراجع التدريجي في الوازع الأخلاقي! الذي ساد ديار الإسلام، والتقليد الأعمى للعمارة الغربية دون إدراك لمدى مناسبتها للمجتمع الإسلامي.

وليت الأمر يسمح بتغطية هذه الشرفات مرة ولو بأبسط أنواع التغطية وهي الخشب البغدادلي[2].

لقد بنى الإنسان المسلم بيته لسكنه الشخصي ولأسرته، فكان البيت يسمح بالزيادات عليه أفقيًا أو رأسيًا وذلك حسب زيادة الاحتياجات الناشئة عن زواج أحد الأبناء أو زيادة عدد الأحفاد... وحسب المساحات المتوفرة في البيئات السهلة أو الجبلية. وتميزت المنازل الإسلامية بالكفاءة التصميمية العالية للمعمار[3] وكانت مواد بناء البيت من البيئة.. فهو من الطين المحروق في دلتا الأنهار وعلى شاطئيه.. وسقفه من سعف النخيل أو من القباب ذات العقود العبقرية البسيطة القوية، تحفظ لداخل البيت الرطوبة الجوفية وتعكس لخارج البيت حرارة أشعة الشمس الساقطة

١- روشن : بمعنى الكوة أو النافذة أو الشرفة وهى من الفارسية : روزن ويقصد بها في العصر المملوكي الخرجات التي تستخدم للبروز بالعمارة وزيادة سطح الأدوار العليا وتطل على الشارع وواجهة الدخول، ويرد في الوثائق «رواشن من خشب نقي مدهون» و «روشن بارز» و«روشن به طاقات»، د. محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ص ٥٨، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٠ .

٢- ألواح البغدادلي ألواح رقيقة من الخشب تثبت على عوارض خشبية مائلة بدرجة ٤٥ مئوية وذلك من اليمين واليسار لتتقاطع وتعزل الداخل عن الخارج .

٣- د . إحسان فتحي، المرجع السابق ص ٧٦ .

عليه. وعلى شواطئ البحار من صخور المرجان ورواسب الشاطئ السلتية والأسقف من سعف النخيل أو الخشب.

وفي البيئات الجبلية كانت البيوت من الأحجار، ونظر لضيق المساحة المتاحة كانت متعددة الأدوار بتعدد الاحتياجات الواجب توافرها في البيت المسلم للضيوف والأبناء ولأداء سائر الشعائر.. وللراحة والاستجمام في ضوء القمر وتحت ظل السماء[1].

أما البيئات المتوسطة بين السهل والجبل، فكان البيت متسعًا وممتدًا أفقيًا والحوائط من الأحجار ومادة البناء الطين والأسقف من جذوع النخل.

نماذج البيت المسلم عديدة فنراها في حيدر أباد ولاهور كما في سمرقند أو إسلامبول أو قرطبة أو صنعاء وكلها غنية تنبع جميعها من منهل قيم الشريعة الإسلامية وآدابها.

إن الاهتمام بالمساكن في العمارة الإسلامية لم يقتصر فقط على منازل وقصور الأثرياء والطبقة المتوسطة، بل امتد إلى الفقراء من عامة الناس وبصفة خاصة في المدن المزدحمة كالقاهرة، فمن المباني الشعبية التي نالت هذا الاهتمام «الربع»[2] حيث نجد مهندسي العمارة الإسلامية حرصوا على حل العديد من المشكلات الاقتصادية والجمالية والاجتماعية.. ومن هنا بدأت الرغبة في بناء الربع.. فبدلاً من إقامة عدة بيوت صغيرة متفرقة

١- محمد سعيد فارسي ود.حمزة إبراهيم عامر، خصائص العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية وأثرها في تخطيط مدينة جدة القديمة والحديثة ص ١٥، ١٦ نشر إدارة الأبحاث بأمانة مدينة جدة ١٤٠١ هـ .

٢- الربع : الدار حيث كانت والمنزل والوطن، وكل ذلك مشتق من ربع المكان إذا اطمأن . وفى العمارة في العصر المملوكي يقصد به مبنى به مجموعات من الوحدات السكنية، وغالبًا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها يسمى ربعًا، أي من الممكن أن يكون بالمبنى الواحد أكثر من ربع .

- د. محمد محمد أمين وليلى إبراهيم، المرجع السابق ص ٥٢، ٥٣ .

- Laila Ali Ibrahim Middle-class living units in Mamlak cairo architecture and Terminology. Garp london December P. 24 : 30. 1978

(مما يضاعف التكاليف من الناحية الاقتصادية) نجد أنه تم توفير هذا الكم من البيوت مجتمعة وممتدة في اتجاه رأسي أو أفقي.. يقول المقريزي «كانت بعض الأرباع تحتوى على ثلاثمائة وستين بيتًا وقد سكنها نحو أربعة آلاف نفس» وما يهمنا في هذا المبنى المتواضع هو احتواؤه على نفس العناصر الجمالية الموجودة في البيت أو في القصر ولكن بدون مظاهر الزخرفة والثراء الموجوده في بعض البيوت.

ومن أمثلة هذه الرباع ربع الحمص، وهو يعتبر ربعًا كبيرًا إذ تبلغ مساحته حوالي ٦٠٠٠م٢ وبه فناء داخلي مساحته ١٥٠٠م٢، ويشتمل على ٣٥ بيتًا على دورين أي ٧٠ بيتاً أو شقة، وكل بيت عبارة عن قاعة كبيرة وثلاث غرف ومطبخ وحمام وسلم خاص. وبذلك يتم توفير لكل وحدة خصوصيتها المستقلة. وقد رُوعِيَ في التصميم أن تتوفر فيه المرونة من حيث الاستخدام حيث يمكن لعائلة كبيرة أن تستخدم وحدتين معًا بسلم خاص. أما الدور الأرضي فيحتوي على مجموعة كبيرة من الحوانيت التي تستخدم في الأغراض التجارية والصناعية، وتستغل هذه الحوانيت من قبل أناس عديدين كل حسب مهنته ومنهم من يسكن في نفس المبنى ومنهم من يسكن خارجه.

ومع احتواء الربع على هذا العدد الكبير من الناس، فإنه يطل معظمه على الداخل مما يساعد على تلطيف درجات الحرارة والسماح للهواء وضوء الشمس بالتخلل داخل المبنى بقدر كاف.. وتبلغ أبعاد الفناء ٦٥م X ٢٥م وبارتفاع ثلاث أدوار أي ١٥م فقط مما لا يتوفر في أي من المساكن الشعبية التي تبنى حاليًا[١].

تتميز الرباع بأنها تعتبر نموذجاً ممتازاً للمباني المتعددة الأغراض في العمارة الإسلامية، فبعضها يحتوى على وكالة وربع ومحلات صناعية وسبيل

١- سهير صالح، ربع الحمص، مجلة عالم البناء، جمادى الآخر ١٤٠٢هـ العدد ٢١ ص ٣٦، ٣٧ .

وكتاب، ومن أمثلة هذا النوع من المباني السكرية. هذا المبنى المتواضع في شهرته، العظيم في وظيفته، يقف صامتًا في حي من أحياء القاهرة القديمة ربما يلفت النظر أو يجذب الانتباه، فمدخله الكبير مزدحم الجانبين بالبضائع والعمال والصناع والتجار فلا نكاد نميزه وسط هذه البضائع المكدسة ولا وسط هؤلاء الحرفيين الداخلين والخارجين، ولكن إذا دققت النظر ونظرت إلى أعلى بهرتك الأعداد الكثيرة من المشربيات الصغيرة الجميلة الفريدة في نوعها، أما إذا دلفت إلى الداخل فسوف تذهل من هذه المساحة الرائعة الكبيرة التي يحتلها هذا المبنى، ويفتح على الفناء الداخلي حوانيت الحرفيين وفى الخارج توجد بواجهة المبنى المحلات التجارية حيث يعرض بها التجار بضائعهم من السكر والبندق واللوز ونحو ذلك، ويباع فيها أيضًا السمن والدجاج والبيض وغير ذلك. ويعلو الدور الأرضي الربع وله مدخل خاص خلاف مدخل الوكالة التجارية، فإذا صعدت إلى الدور الأول وجدت هذا العدد الوفير من الوحدات السكنية متراصة مختلفة المساحات والغرف، ولكل وحدة سلمها الخاص الذي يصعد بها إلى الدور الثاني حيث توجد مجموعة أخرى من الوحدات السكنية، ويسكن هذا الربع حوالي ١٠٠ أسرة. بالرغم من أن أكثر من نصفه متهدم، وأحيانًا كثيرة تكون معظم هذه الأسر ممن يشتغلون بالمنشأة.

أما السبيل الملحق بالمنشأة بالدور الأرضي فقد بني لسقي المارة، يعلوه كتاب لتعليم القرآن الكريم حيث يمكن لأسر الربع إرسال أولادهم إليه ليتعلموا، وهكذا فإنك أمام عمل معماري رائع وظيفيًا، وكالة إلى ربع إلى محلات تجارية ومخازن... إلى سبيل ومدرسة، وهو نظام وجد في العمارة الإسلامية في أكثر من مكان[1].

من هذا الربع نستطيع أن نتعلم الدرس.. من القديم نستطيع أن نبنى

١- سهير صالح، السكرية، من القديم إلى الجديد، مجلة عالم البناء، العدد ٩ جمادى الآخر ١٤٠١هـ ص ٣٦،٣٧.

الحديث.. من الماضي نستطيع أن ننظر إلى الحاضر.. وننتقل إلى المستقبل.

لقد عرفت المدينة الإسلامية التكافل الاجتماعي عن طريق توفير السكن للمعدمين، فنجد في مدينة رشيد العثمانية، الأغنياء ألحقوا بمنازلهم أحواشًا كحوش «عرب كرلي» وحوش «التوقاتلي» وحوش «علوان بك»، وكل حوش عبارة عن فناء حوله مجموعة من الوحدات السكنية الصغيرة يسكنها المعدمون ويتولى صاحب المنزل الملحق به الحوش الصرف عليهم، وأمر التكافل الاجتماعي بين أهل كل مدينة إسلامية نفتقده في عصرنا الحاضر.

وجدت هذه الظاهرة بالعديد من المدن الإسلامية الأخرى ومنها فاس حيث وجد بها أربعة ديار وقفية يسكن بها الضعفاء والمساكين، وكانت من أكبر ديار فاس ضخامة وسعة ووفرة ماء[١]. لقد وجدت الأسر الفقيرة رعاية كبيرة من مؤسسة الأحباس في المغرب الإسلامي التي ساهمت في توفير السكنى للمحتاجين، مجانياً أو بكراء رمزي[٢].

وعرفت المدينة الإسلامية دور رعاية المسنين وكانت تعرف بالمغرب الإسلامي بدار الشيوخ مثل التي بنيت بفاس للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع فاس[٣] والتي أنشأت بمكناس[٤] .

١- الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، الملاجئ الخيرية الإسلامية في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية، المجلة الزيتونية جـ٦ مجلد ٣ ص ٢٧٨ .

محمد المنونى، دور الأوقاف المغربية في التكامل الاجتماعي، ص ٢١٨، بحث في كتاب مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٤٠٣٦ هـ .

٢- د. محمد زنيبر، الحبس كمظهر من مظاهر السياسة الاجتماعية في تاريخ المغرب ص ٢٠٩، بحث في كتاب مؤسسة الأوقاف .

٣- الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، الملاجئ الخيرية الإسلامية في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية، المجلة الزيتونية جـ٦ مجلد ٣ ص ٢٧٨ .

٤- د. عبد اللطيف إبراهيم، نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٨ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

- محمد كمال الدين على، المكاتب ودورها في النهضة الفكرية والاجتماعية في مصر المملوكية ص ١٠٢، مجلة الدارة السنة ١٦ العدد الأول ١٤١٠ هـ.

- **المؤسسات الخدمية بالمدينة الإسلامية:**

لا تتكامل وظائف أي مدينة إلا إذا توافرت فيها مجموعة من المؤسسات الخدمية التي تشكل عصب المدينة، ولقد حرص المسلمون على إقامتها وتنظيم أداء وظيفتها بسهولة وكفاءة، ونتعرض هنا إلى المؤسسات ذات الفاعلية الشديدة في المدينة الإسلامية، وبصفة خاصة المؤسسات التعليمية والتثقيفية والصحية.

١- **المكاتب:** انتشر بناء المكاتب (الكتاتيب) على نطاق واسع في العالم الإسلامي وعرف منها نوعان هما:

أ- **المكاتب الأهلية أو الخاصة:** التي كان يقيمها من وجدوا في أنفسهم القدرة على اتخاذ التعليم حرفة يتقوتون منها، ويتعلم فيها الصبيان بعوض[١]– أجر معلوم – يدفع لأصحابها.

ب- **المكاتب العامة:** التي كان قيامها مرهونًا بأصحاب المناصب والجاه في الدولة من سلاطين وأمراء ووجهاء وتجار.. ابتغاء مرضاة الله وثوابه، وكان التعليم فيها مكفولاً بدون أجر للأيتام، والمعدمين[٢]– الفقراء – وأبناء البطالين من الجند[٣]– أحيانًا – وقد كفل لهم نظام «معاليم» عينية ونقدية – أو نقدية فقط – تصلح لما يحتاجونه أثناء دراستهم في المكتب، من ألواح ومحابر وأقلام ومداد... فضلًا عن الكساء والفراش، وما يجرى عليهم من الرواتب، أو يبذل لهم في المواسم والأعياد من الكعك والسكر والحلوى والفاكهة والأضحيات[٤].

١- ابن الحاج (محمد بن محمد العبدرى) المدخل جـ٢، ص ٣٢١، ٣٢٢، بيروت، دار الكتاب العربي ط ٢، ١٩٧٢م .

٢- د. عبد اللطيف إبراهيم، نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش، مجلة الآداب جامعة القاهرة مجلد ٨٢ ص ٢٧١ – ٣٧١ .

- محمد كمال الدين على، المكاتب ودورها في النهضة الفكرية والاجتماعية في مصر المملوكية ص ٢٠١، مجلة الدارة السنة ٦١ العدد الأول ١٤١٠ هـ .

٣- محمد كمال الدين على، المرجع السابق ص ١٠٢ .

٤- المرجع السابق، ص ١٠٣ .

ولقد رُوعِيَ في إنشاء المكاتب عدة أمور تهدف مجتمعة إلى «أن تكون بداية أمر الصبيان على المنهج الأقوم والطريق الأرشد»[1]، ليصيروا في مستقبلهم رجالًا صالحين في مجتمعهم. وهي أمور أسهمت إسهامًا فعالًا في النهضة الفكرية بالمدينة الإسلامية.

ومن هذه الأمور والضوابط ما يتعلق باختيار موضع الكتاب، ومنها ما تعلق بمن يقوم على (المؤدب أو الفقيه أو المعلم)، ومن يساعده في عمله (العريف والسائق)، ومنها ما يتعلق بالطلاب أنفسهم وطرق المحافظة عليهم، فضلًا عن تنظيم الدراسة وتقنينها، واختيار المناهج لها.

فقد رُوعِيَ في القائمين على هذه المكاتب من مؤدبين أو معلمين أو فقهاء - والكل تسميات لمسمى واحد- أن يكونوا مؤهلين لما يقومون به من عمل، تأهيلًا خلقيًا وعلميًا وعمليًا، كما يستدل من كلام الفقهاء والكثير من حجج الوقف، ومنه قول ابن الحاج في مدخله:

«ينبغي أن يكون المعلم من حاملي القرآن الكريم ومن أكثر الناس في التعظيم لشعائره، والمشي على سنن من تقدمه في تعظيم ذلك وإكرامه»[2]، و«أن يكون على أكمل الحالات، ومن ذلك أن يكون متزوجًا لأنه إن كان صالحًا في نفسه فالغالب إسراع سوء الظن في هذا الزمن بمن كان غير متأهل.. فإذا كان متأهلًا انسد باب الكلام والوقيعة فيه»[3].

وقول ابن الأخوة في معالم القربة في أحكام الحسبة:

«يشترط في المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظًا للكتاب العزيز، حسن الخط، ويدري الحساب، والأولى أن يكون متزوجًا، ولا يفسح لعازب أن يفتح مكتبًا لتعليم الصبيان إلا أن يكون شيخًا كبيرًا وقد

١- ابن الحاج، ص ٣٢٣.

٢- ابن الحاج، جـ٢ ص ٣١٥.

٣- المرجع السابق، ص ٣٢٩.

اشتهر بالدين والخير ومع ذلك لا يؤذن له بالتعليم إلا بتزكية مرضية وثبوت أهليته لذلك، إذ أنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملًا ورفعة»[١].

هكذا دقق سلفنا الصالح في شروط المعلم الذي يتولى تربية النشء وهي شروط نفتقدها اليوم في كثير من المدن الإسلامية، فالطفل يسلم إما إلى مؤسسات تعليمية على النمط الغربي ويديرها أهل الغرب أحيانًا، أو إلى مؤسسات تربوية مشوهة يفتقد القائمون عليها أبجديات التربية الإسلامية.. ومن هنا يخرج الطفل، في بعض الأحيان، مشوهًا فكريًا ومنفصلًا حضاريًا عن ماضيه وعن دينه وقيمه.

ومن استقراء ترجمات أعلام العصر المملوكي نجدهم قد التحقوا صبيانًا بالمكتب في سن مبكرة، فقد التحق علم الدين صالح البلقيني[٢] والشمس السخاوي بالمكتب في الرابعة من عمرهما[٣]، بينما التحق ابن حجر العسقلاني بالمكتب في سن الخامسة[٤].

كما يلحظ أن ضوابط العمل في المكتب قد حددت عدد التلاميذ، بحيث لم يكن مسموحًا في مكاتب الأيتام بحال من الأحوال تجاوز العدد المحدد في شرط الوقف ما لم يشر صراحة إلى التجاوز عنه. والمدرك من استقراء حجج الوقف أن أقل عدد نص على قبوله في هذا النوع من المكاتب كان خمسة وأن أقصى عدد كان مائة[٥].

وللترويح عن الصبيان وتنشيطهم، فإنه قد سمح لهم بالانصراف إلى

١- ابن الأخوة (محمد بن أحمد القرشي) معالم القربة في أحكام الحسبة، كمبردج، ١٩٣٧، ص ١٣٧ .

٢- ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ٢٥٦، تحقيق د . حامد عبد المجيد ومحمد المهدي أبى سنة، القاهرة الأميرية ١٩٥٧ .

٣- ابن حجر، المرجع السابق، ص ٥٨ .

٤- محمد كمال عز الدين، المرجع السابق ص ١٠٥ .

٥- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ص ٨ جزء ٢ .

بيوتهم في فترات محددة تتخلل ساعات الدراسة اليومية للاستراحة والغذاء،[1] لأنه لم يكن من المسموح به للصبيان إحضار الأموال أو الأطعمة إلى المكتب، مراعاة للولد الفقير الذي يرجع – لا محالة – إلى بيته منكسر الخاطر، غير راض بنفقة والديه عليه أو من يتولى أمره، لما يرى من نفقه من له اتساع في الدنيا[2] وهذا مبدأ اجتماعي مفقود في عصرنا الحاضر، رُوعِيَ فيه درء جملة من المفاسد منها، إلى جانب هذا، مراعاة آداب الشريعة في التحرز من الأكل على الطريق وفي الأسواق بحضرة من يعرف ومن لا يعرف.

فضلًا عن أن الصبي لم يكن ملزمًا بالحضور إلى المكتب أثناء التقلبات الجوية لما فيها من إضرار العواصف والأتربة والمطر والبرد بصحته أو عندما يمرض. فقد كانت تلك أعذار تتيح للصبيان التغيب عن المكتب مع عدم فصلهم منه أو إسقاط معلومهم فيه غالبًا[3].

أما ما يختص بتنظيم العمل في المكتب، فالملاحظ أن مهمة المعلم لم تكن محدودة بتحفيظ القرآن الكريم ومتون الأحاديث، وعقائد السنن، وأصول الحساب، والخط، والأدب فقط، وإنما اتسعت لتشتمل على الكثير من سلوكيات التقويم والتهذيب، بحيث يعلمهم آداب الدين كما يعلمهم آيات القرآن[4]، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وبضربهم على إساءة الأدب والفحش في الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والنرد وجميع أنواع القمار[5].

١- ابن الحاج، المدخل ص ٣٣٢، جـ٢ .

٢- المرجع السابق، ص ٣٢٢ .

٣- محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ص ١٠٦ .

٤- ابن الحاج، المدخل ص ٣٢٥، جـ٢ .

٥- المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٢٨ .

مع مراعاة الأخذ بالتدرج والتلطف في تعليم الأطفال، مراعاة لقدراتهم الخاصة ومدى استعدادهم لما يتقبلونه من العلوم والمعارف، حيث نصت حجج الوقف في غالبيتها على تعليم الأطفال «ما يحتملون تعلمه وإقراء الصبيان ما يطيقون قراءته»[1].

- **المدارس:** كانت المساجد المعاهد الأولى للتعليم عند المسلمين، فيها يتلقون مبادئ الإسلام وأصول الدين الحنيف. وقد حث الإسلام على التعلم وشجع المؤمنين على السعي في طلب العلم. وكان ذلك مظهرًا أوليًا لنشأة حركة التعليم. حيث تبع ذلك تدريجيًا ظهور حلقات العلم والأدب التي كانت تعقد في المساجد أو في بيوت الخلفاء والحكام، وأصبحت المساجد الجامعة الأولى في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة خير أماكن التعليم، وأبرز تلك المساجد المسجد النبوي بالمدينة، والمسجد الحرام بمكة، والمسجد الجامع بالبصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد الفسطاط بمصر، والمسجد الأقصى بالقدس، والجامع الأموي بدمشق، ومسجد القيروان بتونس، ومسجد قرطبة في الأندلس.

وإلى جانب ذلك، ظهرت بوادر إحساس بالحاجة إلى أماكن للتعليم غير المساجد وعدم الاكتفاء بها، فاتخذت بعض بيوت العلماء لتدريس علوم الدين واللغة[2]، ونشأت خزانة الكتب وبيوت الحكمة ودور العلم لتيسير سبل التعليم ودراسة مختلف العلوم[3].

وجاء القرن الرابع الهجري حيث شهد تبلور فكرة «المدرسة» بظهور دور مخصصة للتدريس، فيها مساكن للغرباء وأوقفت لها الأوقاف وجعلت بها

١- راجع د. عبد اللطيف إبراهيم، نصان جديدان، ص ٢٨ : ١٤٧، محمد كمال عز الدين، المرجع السابق، ص ١٠٧ .

٢- ابن الجوزي صفة الصفوة جـ١، ص ٣١٩، حيدر آباد ١٣٥ هـ، ابن كثير البداية والنهاية جـ٨ ص ٣٠١، القاهرة ١٣٥٨ هـ .

٣- المقريزي المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ٤٥٨، جـ٢ ص ٣٤٢ .

خزانات للكتب ودرست فيها علوم مختلفة. وهكذا كانت المدارس مرحلة متقدمة في سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم. ونضوجًا لفكرة راودت أصحابها ظهرت إلى الوجود بعد توفر الظروف المساعدة لها.

ويعتبر القرن الخامس الهجري فاتحة عصر جديد بالنسبة لنظام التعليم والمدارس في الإسلام، عندما أخذت الدولة باحتضان فكرة «المدرسة» واتخاذها مركزًا لنشر الفكر الإسلامي بعيدًا عن التيارات المعادية والأفكار المضادة، فهيأت الدولة لذلك الأبنية وصرفت الأجور للمدرسين والطلاب وجعلت لها الأوقاف الكافية للصرف عليها وضمان دوامها. وهكذا بنيت المدرسة النظامية ببغداد في سنة ٤٥٩ هـ من قبل نظام الملك وزير السلطان السلجوقي آلب أرسلان ووزير ابنه ملكشاه.

أما بالنسبة للنظام التخطيطي والمعماري للمدرسة، فيمكننا القول بأنه مستمد أصلاً من نظام المسجد الجامع الذي تطورت عمارته وتخطيطه تطورًا منطقيًا بحكم الضرورة وفق متطلبات المدرسة من إقامة بيوت لسكن فريق من الأساتذة والطلاب وتوفير سبل البحث والدراسة والمعيشة لهم[١]، وأبرز الخصائص التي تميزت بها أبنية المدارس في العصر العباسي هي:

١- تخطيط المدرسة هو مستطيل أو مربع تتوسطه ساحة مكشوفة (صحن) تحيطها مرافق المدرسة وتحتل الساحة أكبر قدر من المخطط العام للبناية.

٢- وجود إيوانات على الساحة الوسيطة، فبعض المدارس فيها إيوان واحد، وبعضها فيها إيوانان، وهناك مدارس ذات أربعة إيوانات.

٣- إقامة بيت الصلاة في الجهة القبلية من البناية بحيث يوفر ذلك إمكانية الاستفادة من الساحة في أداء الصلاة عند عدم كفاية بيت الصلاة ووجود عدد كبير من المصلين.

١- د. أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها جـ٢ ص ١٥٤ – ١٩٢، دار المعارف – مصر ١٩٦٩م.

٤- وجود حجرات وغرف للسكن مع قاعات كبيرة للتدريس[١].

أقيمت هذه المدارس على مساحات شاسعة من الأراضي، ولكن ظلت العواصم القديمة في تزايد مستمر وتكاثر سكاني، ولهذا فإن مباني العصر المملوكي في القاهرة مثلاً لم تكن عمائر مثل ما كان الحال في العواصم الأولى بل كان لابد من هدم عقار قديم لإقامة المباني الجديدة عليها.

وهذه الظاهرة ملحوظة جدًا في داخل القاهرة بالأحياء المأهولة بالسكان، أما خارج القاهرة فالأمر مختلف. وكان الازدحام سببًا في تصغير مساحات المباني المملوكية لاسيما الدينية منها، فبمقارنة مساحة جامع أحمد بن طولون بمساحة الجامع الأزهر، ثم مقارنة ذلك بالمباني المملوكية نجد فرقًا شاسعًا في المساحة.

ولكن رغم صغر مساحات المباني المملوكية، فإن المعمار أظهر فيها براعة فنية وهندسية مذهلة وأدت هذه المساحات الصغيرة وظائف عديدة وأدمجت فيها عناصر معمارية جديدة.

وكان تصميم المدرسة في العصر المملوكي يمثل في الغالب أربعة إيوانات متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب، وأصغرها الإيوانان الجانبيان، ويتوسطها في الغالب صحن مكشوف به قبة الفسقية، وألحق بالمدرسة سبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام عدا مساكن الطلبة والمدرسين. ومن أروع أمثلة هذه المدارس مدرسة السلطان حسن بالقاهرة[٢].

وضع لهذه المدارس نظام دقيق، حيث تم تحديد عدد المدرسين والطلاب وقراء القرآن الكريم والحديث النبوي. وعين لكل مدرسة ناظر ومشرف وخازن للكتب ومناول وكاتب، إلى جانب المعماريين والفراشين والبوابين

١- خ الد خيل حمودي المدرسة المستنصرية في بغداد ص ١٠ المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٨١.

٢- حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية جـ١ ص ١٦٨.

والطباخين وغيرهم. كما تم تحديد مرتبات ومخصصات هيئة التدريس والطلاب والعاملين بها. وقد أوردت المراجع ذلك بالتفصيل، كما بينت أن الالتحاق بهذه المدارس يكون عادة بعد انتهاء الطلاب من دراستهم الابتدائية في المكتب أو الكتاب ويبقون فيها عدة سنوات، فالدراسة في المدرسة التنكزية بالقدس كانت أربع سنوات.. وربما كانت هذه هي مدة الدراسة الشائعة[1].

ومن أكثر هذه الأنظمة دقة النظام الذي وضعه الخليفة المستنصر بالله لمدرسته ويمكننا تلخيصه في النقاط الآتية:

١- يكون عدد الفقهاء (طلاب الفقه) ٢٤٨ متفقهًا، من كل طائفة (مذهب) منهم ٦٢ فقيهًا لهم المشاهرة والجراية الدارة واللحم والمطبخ والحلوى والفواكه والفرش والصابون والمسرجة وأبريق النحاس مع راتب شهري قدره ديناران يضاعف في شهر رمضان. وما سبق نوع من التكافل الاجتماعي الذي قل في عصرنا الحاضر، وهذا التكافل هو الذي أخرج لنا صفوة علماء هذه الأمة.

٢- يعين لكل طائفة (مذهب) مدرس وأربعة معيدين ومرتب ينظم أمور الطلاب ويسهر على راحتهم وطعامهم ويراقبهم ليلًا ونهارًا. وهذا يفيد في حرص أهل ذلك العصر على متابعة هؤلاء الطلبة وتربيتهم تربية جيدة من خلال المتابعة المستمرة.

٣- يكون في دار القرآن ثلاثون صبيًا أيتامًا لكل منهم الخبز والطبيخ مع راتب شهري.

٤- يعين في دار القرآن شيخ مقرئ صالح لتلقين القرآن الكريم له في كل يوم الخبز والطبيخ مع راتب شهري قدره ثلاثة دنانير.

٥- يعين مع الشيخ المذكور معيد يحفظ القرآن الكريم للصبيان له الخبز

١- د. كامل جميل العسلي مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس ص ١٠٠ .

والطبيخ وراتب شهري.

٦- يكون في دار الحديث شيخ عالي الإسناد ويشتغل بعلم الحديث له، في كل يوم الخبز واللحم مع راتب شهري قدره ثلاثة دنانير.

٧- يساعد المذكور قائمان للحديث لكل منهما الخبز والطبيخ مع راتب شهري.

٨- يكون في دار الحديث عشرة أشخاص لكل منهم الخبز والطبيخ مع راتب شهري.

٩- يعين في المدرسة طبيب حاذق مسلم له في كل يوم الخبز واللحم مع راتب شهري.

١٠- يكون مع الطبيب عشرة أشخاص من المسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب لهم الجرايات مثل طلاب الحديث.

١١- يقوم الطبيب بمعالجة من يعرض له مرض من أرباب المدرسة وأوقافها.

١٢- يعطى المريض مجانًا ما يوصف له من الأدوية والأشربة والأطعمة وغير ذلك.

١٣- اشترط الخليفة أن يكون في هذه المدرسة من يشتغل بعلم الفرائض والحساب.

١٤- جعل الخليفة للمدرسة أوقافًا كثيرة كان المسؤول عنها يسمى «صدر الوقوف» وقيل عن تلك الأوقاف أنها بلغت ما قيمته ألف ألف دينار، وأن وارداتها في العام نيف وسبعون ألف مثقال ذهب[١].

وحددت مواعيد الدراسة بهذه المدارس حتى أصبحت تقليدًا معمولًا به، فكان اليوم الدراسي ممتدًا من طلوع الشمس إلى آذان العصر، وكان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانيات المكان وحسب ظروفه،

١- خالد خليل حمودي، المدرسة المستنصرية ص ١٤، ١٥ .

خلال اليوم الدراسي، على أن تقتصر فترة الدراسة الفعلية على ما يقرب من ثلاث ساعات.

أما الإجازات السنوية فكانت شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان والعشرين من شوال من كل سنة فإنهم ينصرفون عن حضور الدرس في هذه المدة ثم يشرعون في حضور الدرس ويحضرون في الحادي والعشرين من شوال إلى سلخ ذي العقدة ويتوقفون عن الدرس من مستهل ذي الحجة إلى آخر الخامس منه ثم يحضرون الدرس في سادس عشر ذي الحجة.

ونلاحظ من هذا أن الإجازات السنوية تتفق والمناسبات الدينية التي تقام فيها شعائر دينية معينة سواء كانت فرضًا أم سنة، كما نلاحظ أيضًا أن غالبية وثائق الوقف قد نصت على السماح لأرباب الوظائف والطلبة بتأدية فريضة الحج على أن يحصلوا على مرتباتهم إذا كان الحج لتأدية الفريضة، أما إذا كان الحج تطوعًا فيلزم الموظف بأن يستنيب عنه، أو يقطع «معلومه» حتى عودته[1].

وقد اشتُرطت شروط في المدرس، أصبحت على مر السنين تقليدًا معمولًا به، حتى ولو لم ينص على ذلك، كما يتضح لنا أن المدرس في ذلك العصر هو أستاذ المادة، وارتبطت مكانة المدرسة بمكانة المدرس القائم بالتدريس فيها. فسمعة المدرس هي التي تضفي على المدرسة السمعة الحسنة، وسمعة المدرس هي التي تجذب إليه الطلبة من مختلف الأنحاء، ولذلك حرص الواقفون على أن يكون المدرس على درجة عالية من الثقافة والتخصص في مادته.

ولا يمكن أن نغفل شروط الواقفين في المدرس من أنه يجب أن يكون حسن الهيئة، لما للهيئة من تأثير كبير لشخصيته على طلبته، وهو ما تعنى

١- د. محمد محمد أمين الأوقاف ونظام التعليم في العصور الوسطى الإسلامية ص ١٦١ ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي.

به التنظيمات الحديثة، فتنص على إجراء كشف هيئة للمتقدمين لبعض الوظائف، و منها وظائف التدريس.

ولما كان وقت المدرس لا يتسع لإعادة شرح بعض الدروس لمن يحتاج إلى ذلك من الطلبة، فقد حرص الواقفون على ترتيب معيد أو أكثر بالمدرسة، ووظيفة المعيد في العصر المملوكي مثلاً تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد في الكليات الجامعية في العصر الحديث، فلم يكن المعيد سوى طالب علم متقدم، أو مساعد مدرس، فكان عليه أن يساعد المدرس الذي يتبعه في المذهب، ويحضر الدروس التي يكلفه بها ليقرأها أثناء الدرس «فكل معيد يقرأ درسًا واحدًا من كتاب يعينه له المدرس.. والطلبة يسمعون ذلك»[١]، كما كان على المعيد أن يجلس مع الطلبة قبل الدرس أو بعده، لمساعدتهم على استيعاب دروسهم[٢].

وتخصصت بعض المدارس في علوم معينة كدار الحديث الكاملية بالقاهرة ودار الحديث بالقدس والتي تعود للقرن ٧هـ/١٣م، وكذلك البيمارستان القلاووني الذي كان يدرس به علوم الطب.

٢- المكتبات العامة:

اهتم الخلفاء والسلاطين المسلمون بإقامة المكتبات العامة للناس، وكانوا يتباهون بما يجمعون فيها من كتب مخطوطة ومنسوخة، وينفقون عليها ببذخ شديد، لتنميتها، وإغنائها بالمخطوطات التي لا توجد في أي قطر سواها، حتى يأتى الناس إليها من كل مكان، للقراءة والاطلاع والنسخ، فانتشرت خزائن الكتب في أقطار العالم الإسلامي من سمرقند وفاس إلى بخارى وقرطبة، ومن بغداد ودمشق إلى حلب والقاهرة، ولقد بلغ من اهتمام المأمون وولعه

١- عبد اللطيف إبراهيم نشر ودراسة وثيقة الأمير صرغمتش ٣١١٩٥ أوقاف ص ٢٧ .

٢- د. محمد أمين المرجع السابق ص ١٥٧ .

بجمع الكتب أنه أصر أن يكون أحد شروط الصلح مع الإمبراطور الرومي ثيوفيلوس Theophilos تسليم محتويات إحدى المكتبات في القسطنطينية فنقلها إلى مكتبة بغداد فوق مائة بعير، ويروى أيضًا أن الخليفة الحاكم صاحب الأندلس كان يبعث مندوبين عنه إلى جميع البلدان، يفتشون عن المخطوطات النادرة، ويدفعون مبالغ طائلة مقابل شرائها أو نسخها، وقيل أيضًا إن فهرست مكتبته في قرطبة تألف من أربع وأربعين كراسة بكل منها عشرون ورقة، وقد قيل أيضًا أن غرناطة لما سقطت كآخر معاقل المسلمين في الأندلس ألقى المتطرفون الصليبيون الأسبان من جماعات محاكم التفتيش مئات الأطنان من المخطوطات العربية في النهر الذي تقع عليه المدينة، حتى ازرق لون مائه من شدة أحبار هذه المخطوطات، ويتساءل المستشرقون الأسبان اليوم عما تكون عليه الدراسات الثقافية في أسبانيا وغرب أوربا، لو لم يقدم رجال محاكم التفتيش على هذه الجريمة الشنعاء، صحيح إن الندم لا يفيد صاحبه، ولكنه يمثل يقظة الضمير الأوروبي وندمه على جرائمه التي ارتكبها في حق الحضارة الإسلامية رغم فضلها عليه وعلى حضارته.

كما كانت المكتبات الإسلامية تقام في أبنية جميلة تشرح صدور المترددين عليها، وكان بها حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة على جدران الحوائط، وقد خصصت بعض الأروقة للاطلاع، وبعض الحجرات للنساخ والنسخ، وبعضها لدروس العلماء والمناظرات، وكانت هذه المكتبات تؤثث بأفخر الأثاث، وتفرش أرضيتها بالبسط والحصير حيث يجلس المطلعون، ومن وصف المقريزي نفهم أن الستائر كانت تقام على النوافذ والأبواب، ولراحة المطلعين كانت أسماء الكتب ومؤلفيها تكتب على أطراف الصفحات وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة حسب موضوعات الكتب، كما كانت تلصق على جانب كل رف ورقة بها أسماء الكتب التي يحتويها، وقد سمح بالاستعارة الخارجية خاصة للعلماء

والأعيان[١] ، وكان يعمل بالمكتبة موظفون يرأسهم «الخازن» وهو أمين المكتبة يختار من أهل العلم والمكانة، وقد توصل العرب قبل غيرهم من الأمم إلى علم إدارة المكتبات، وتصنيف المؤلفات تصنيفًا موسوعيًا، ومن أشهر خزان المكتبات سهل بن هارون وابن مسكوية وأبو سيف الأسفرايني[٢] .

وكان بكل مكتبة عدد من النساخين والمترجمين والمجلدين، بالإضافة إلى المناولين الذين يحضرون الكتب للقارئ، وقد أطلق عليهم اسم الخدم تميزًا لهم عن الفراشين الذين يقومون بتنظيف فراش المكتبة وأثاثها، وقد زودت المكتبات الكبرى بكل ما يحتاج إليه الباحثون والمطلعون من أدوات كتابية مثل الأقلام والأحبار والأوراق، بل زودت بالمياه الباردة لراحة الباحثين والمراجعين والناسخين والمترجمين، ورتب فيها معلمون يدرسون للناس المعرفة والعلوم، وكان يجتمع في هذه المكتبات صفوة العلماء والأدباء وتقام فيها الندوات والمناظرات[٣] .

٣- البيمارستانات:

البيمارستانات أو المارستان[٤] لفظان أطلقا على المستشفيات بمفهومنا العصري، وهي إحدى المؤسسات الخيرية العامة التي شيدها الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء وغيرهم من الموسرين من الرجال والنساء صدقة[٥] .

١- سعد مرسى أحمد تطور الفكر التربوى ص ١٧٧ – ١٧٩ عالم الكتب القاهرة ١٩٦٦ .

٢- محمد عطية الإبراشى التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٧٢ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٧٦ الطبعة الثالثة .

٣- د . سيد أحمد على الناصرى، الوراقون والنساخون ودورهم في الحضارة الإسلامية ص ١٨٦ مجلة الدارة العدد الرابع السنة ١٤، ١٤٠٩ هـ .

٤- بيمارستان أو مارستان لفظ فارس مركب من بيما أي مريض وستان بمعنى مكان أو محل، أي دار المرضى، وقد عرفت مصر هذه المستشفيات منذ العصر الأموى . د. محمد أمين وليلى إبراهيم المرجع السابق ص ٢٤ .

٥- د. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ٣ المطبعة الهاشمية – دمشق ١٣٥٧هـ١٩٣٩م .

إن الحكام الأمويين أول من أنشأ المستشفيات النظامية من العرب وأقدم بيمارستان عرف في عاصمة الأمويين بدمشق، تنسب عمارته إلى الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه المتوفى سنة ٦٠ هـ / ٦٨٣ م. وكان مكانه تحت المئذنة الغربية في الجامع الأموي. ومعلوماتنا عن هذا البيمارستان قليلة جدًا، ولم يشهد له المؤرخون المتأخرون أثرًا[١].

وقد اعتبر معظم الباحثين الوليد بن عبد الملك المتوفى ٩٦هـ / ٧١٥ م أول من بنى المستشفيات في الإسلام، وكان ذلك في سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م. وحيث أن الوليد قد بنى هذا المستشفى لغرض الاستشفاء، فلابد أن تكون هندسة عمارته كما يتطلبها نوع الوظيفة وراحة المرضى، وقد بنى الوليد بن عبد الملك هذا المستشفى للمجذومين بالدرجة الأولى، وأمر بحبسهم فيها لئلا يختلطوا بالناس وينشروا المرض فيما بينهم، وأجرى على العميان فيها الأرزاق[٢]، وجعل لكل واحد منهم دليلًا، ونفهم من تأسيس هذا البيمارستان تفشي مرض الجذام في البلاد آنذاك، ومعرفة الأطباء طبيعته المزمنة القتالة التي لا ينفع فيها دواء[٣].

انتشرت البيمارستانات في ديار الإسلام. وعرفت في تونس بالدمنة[٤]، واشتهر بعضها مثل بيمارستان مكناس والبيمارستان النوري بدمشق والبيمارستان القلاووني بالقاهرة، وكان سبب إنشاء البيمارستان الأخير زيارة السلطان قلاوون، وهو أمير، لبيمارستان نور الدين بدمشق لما أصابه من مرض، فأُعْجِبَ به، ونذر إن أتاه الله الملك لَيَبْنِيَنَّ بيمارستانًا؛ فلما تولى السلطة بنى هذا البيمارستان وقال حين وقفه: وقفت هذا على مثلي ومن

١- المرجع السابق ص ٢٠٥ .

٢- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ٢ ص ٤٠٥، ٤٣١ .

٣- د. كمال السامراني، مختصر تاريخ الطب العربي جـ١ ص ٣١١ دائرة الشئون الثقافية والنشر – بغداد ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

٤- الدمنة أصل الاسم لحارة في طرف من القيروان، فلما بنى مستشفى في هذه الحارة سمي هذا المستشفى دمنة وصار هذا الاسم بعد ذلك علمًا يطلق على كل المستشفيات التي أسست بعدئذ في تونس . د. كمال السامراني ص ٦٥٤ .

دوني وجعلته وقفًا على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث. ويشير نص الوقف على أن البيمارستان أوقف لخدمة جميع فئات المجتمع وأصبح بعد وقفه مرفقًا عامًا.

واشتمل البيمارستان على أقسام العلاج المتنوعة، فكان فيه قاعة لمرضى الحميات، وأخرى للرمد، وثالثة للجراحة، ورابعة لمن به إسهال، وزود بمطبخ لتجهيز طعام المرضى، وكان فيه موضع للأدوية والأشربة، ومكان لترتيب المعاجين والأكحال وغيرها وبلغ التكامل ذروته عندما قرر به مكانًا لتدريس الطب[١].

يبدو أن وسائل الدولة والموسرين في الوقاية من الأمراض لم تقتصر على البيمارستانات الثابتة في تقديم الخدمات الصحية للمجتمع، بل وجدت وسائل أخرى منها البيمارستانات المتنقلة. وهذا النوع من البيمارستان ينشط في ظروف تحددها الحاجة، ويرى فريق من المعنيين أن المسلمين لهم الفضل في ابتكار هذا النوع من البيمارستانات[٢]، وقد ازداد الاهتمام بمثل هذا النوع من الرعاية في أوقات تفشي الأمراض وانتشار الأوبئة، وفي مواسم الحج.

ومن أبرز رجال الدولة العباسية الذين اهتموا بهذا النوع من البيمارستانات الوزير علي بن عيسى (ت ٣٣٥ هـ / ٩٤٧ م) فقد أمر الطبيب سنان بن ثابت[٣] (١٦٣، ت ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م) بتقديم الخدمات الصحية للسجناء من جهة وأهل القرى والأرياف البعيدة من جهة ثانية باعتبارهم من المجتمعات المفتقرة إلى الرعاية الاجتماعية والصحية.

ومن ضروب هذه البيمارستانات البيمارستان المنسوب للسلطان محمود

١- المقريزى الخطط ص ٤٠٦ جـ٢، د. عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية ص ٢٥٠ .

٢- د. أحمد عيسى المرجع السابق ص ١٠ .

٣- هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة ابن النديم الفهرست ص ٤٣٥ مطبعة الاستقامة القاهرة .

بن سبكتكين (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) المحمول على أربعين جملًا في أوقات الحروب، والراجع أن هذا البيمارستان استمر محمولاً من بعده حتى عهد الخليفة المقتفى (٥٦٦ هـ - ٥٧٥ هـ - ١١٧٠ م - ١١٩٨ م) [١].

٤- الحمامات:

يأمر القرآن الكريم في أكثر من آية بالنظافة الدائمة ويحث الرسول ﷺ عليها في أكثر من حديث، وكان لهذا الحرص على النظافة أن اعتنى المسلمون بالحمامات، سواء كانت الخاصة الموجودة داخل القصور ومنازل القادرين، أو تشييد عمائر للحمامات العامة يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم. وكان لهذه الحمامات العامة شأن في الحياة الاجتماعية في العصور الإسلامية المزدهرة، إذ كان يخصص للنساء يوم أو أكثر من أيام الأسبوع يلتقين فيها للاستحمام والترويح، وكانت تبنى حمامات مخصصة لهن لا يدخلها الرجال، وكانت أكثر حمامات البصرة بقرب المساجد[٢]. وهي ظاهرة انتشرت في العالم الإسلامي لارتباط الصلاة بالطهارة والنظافة وبالتالي ارتبطت مواقع الحمامات بمواقع المساجد، وترى هذه الظاهرة مثلاً في مدن رشيد وفوة ومطوبس حيث تقع حماماتها بجوار مساجدها الرئيسية[٣]. ويضم كل مجمع سلطاني معماري في استانبول واحدًا من مثل هذه الحمامات، من ذلك حمام محمود باشا، وقد بني أصلاً ليكون حَمَّامًا مزدوجًا بحيث يجمع خدمات كاملة لراحة الرجال، وخدمات أخرى كاملة ومنفصلة لراحة النساء. ولم يبق من هذا الحمام الآن سوى القسم الخاص بالرجال. ويتكون من غرفة لتبديل الملابس، عليها قبة كبيرة تحملها مقرنصات، وغرفة ساخنة مثمنة الشكل ومحاطة بعدد من القباب

١- د. أحمد عيسى المرجع السابق ص ١٤ .

٢- ماسنيون خطط الكوفة وشرح خريطتها ص ١٨ ترجمة تقى المصعبى صيدا ١٩٣٩ . مصطفى عباس الموسوى العوامل التاريخيى لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٢٤٢ دار الرشيد لنشر بغداد ١٩٨٢ .

٣- خالد محمد عزب فوة مدينة المساجد ص ٧٥ .

الصغيرة ولكل منها نمط مختلف من الزخرفة. وتعطينا النقوش الكتابية الموجودة أن تاريخ تأسيسه يرجع لسنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٦م[١].

تشابهت أشكال الحمامات العامة في العالم الإسلامي، ولم تختلف إلا في تفاصيل الوحدات المعمارية، إذ كان الحمام يتألف من ممر يؤدى إلى غرفة كبيرة تحوي صفًا من الخزانات الخشبية تعلق فيها الثياب، وتسمى هذه الغرفة «المشلع». ومنها ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الفاترة فيجلس على مقعد حجري يتسع لعدة أشخاص، وفيها يقوم خادم بعملية الغسل بالمياه والصابون، وبجانب هذه الغرفة مضجع خشبى مستطيل يقوم فيه اختصاصي بعملية التدليك لمن يشاء. ثم ينتقل المستحم إلى غرفة المياه الساخنة ويصب على جسمه المياه بواسطة أوعية خشبية، وتؤخذ المياه من بركة في وسط الغرفة، والمياه الساخنة تصل إلى البركة من صهريج خارجي تسخن مياهه بالحطب، وبجوار الغرفة الأخيرة مكان ينتظر فيه المزينون زبائنهم. ثم يعود المستحم إلى حيث وضع ثيابه عن طريق ممر جانِبي، وبسبب عدم وجود نوافذ في الحمام، فقد كان الضوء ينفذ إلى الداخل بواسطة مَناوِر زجاجية تثبت في السقف. ولم تكن الحمامات متوفرة لدى أبناء المدن وحدهم، فالقرويون كانت لديهم حماماتهم أيضًا، وما تزال إلى اليوم في جبال البشرات، وفي ضواحي غرناطة بالأندلس معالم واضحة عن الحمامات القروية[٢].

٥- دور الضيافة:

اشتهر العرب بكرمهم، وحسن استقبالهم للضيف، وحث الإسلام على إكرام الضيف خاصة أبناء السبيل، ومن أجلهم أنشأت دور الضيافة في المدن الإسلامية وأوقفت عليها الأوقاف لتوفي بنفقاتها.

١- أقطاى أصلان أبا، المرجع السابق ص ٢٣٠، ٢٣١ .

٢- د . يوسف شكرى فرحات، غرناطة في ظل بنى الأحمر، ص ١٣١، ١٣٢، د. محمد محمد أمين وليلى إبراهيم المرجع السابق ص ٣٧ .

وتنقسم دور الضيافة إلى ثلاثة أنواع وهي:

أ - **دور الضيافة العامة**: انتشر هذا النوع من الدور في العالم الإسلامي كله، واهتم به الحكام، والموسرون، وفي مدينة بولعوان بالمغرب شاد سكانها بناية من عدة غرف استخدمت كدار ضيافة يستضاف فيها الذين يمرون بالمدينة على نفقة السكان[١].

ب - **دور ضيافة الحجاج**: اهتم الحكام المسلمون بخدمات الحجاج ومرافق الحج، ومن أبرز هذه الخدمات دور ضيافة الحجاج التي انتشرت بكثرة في مدن العالم على طرق الحج، وقد تطورت هذه الخدمة بشكل ملموس في العصر العباسي، سواء على يد الدولة أو على يد الموسرين. يقول ابن الساعى: «.. تقدم الإمام الناصر لدين الله - الخليفة العباسي - ببناء دار الضيافة لوجه الله تعالى بالجانب الغربي فبنيت على دجلة.. وتكامل بناؤها في آخره - آخر سنة ٦٠٥ هـ وكان بدء العمل فيها في شهر محرم - وصنعت بها الأطعمة الكثيرة وتقدم إلى النواب بها أن لايردوا واحدًا من الحجاج أو غيرهم من تناول الطعام، ويدفع إلى كل فقير عند عزمه على السفر دينارًا بعد أن يكسى ويعطى زاده»[٢].

يوضح هذا النص أن الخليفة العباسي شيد دارًا لضيافة الحجاج ببغداد وجهزها بالطعام. ورتب عليها من الموظفين من يشرف على إدارتها، كما تعهدت الدار بالفقراء الذين يرغبون في أداء فريضة الحج بالكسوة والطعام وتزويد كل منهم بدينار. ومن أشهر دور الحجاج بالعالم مضيفة الحجاج ببخارى التي شيدت في القرن ١١ هـ ١٧م.

١- محمد المنوني دور الأوقاف المغربية في التكامل الاجتماعى في عصر بنى مرين ص ٢١٩ كتاب مؤسسة الأوقاف .

٢- أبو طالب على بن أنجب - ابن الساعى - الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير جـ٩، ص ٢٥٨، ٢٥٩ .

تحقيق د . مصطفى جواد المطبعة السريانية الكاثوليكية - بغداد ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

ج- **دور الضيافة الرمضانية:** تعكس هذه الدور صورة صادقة للتكامل الاجتماعي بين الحكومة والفقراء أو بين الموسرين من المسلمين وفقراء المجتمع المحيط بهم، والأحاديث النبوية بينت لنا فضل إطعام الصائم، وقد اهتم الرسول ﷺ بهذا الأمر وتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون وحكام الدولة الأموية ودولة بني العباسي، وقد اهتم الخليفة الناصر (٥٧٥ هـ/٦٢٢)هـ اهتم بمثل هذه الدور بل اعتبر أنه أول من أسس دورًا لإطعام الفقراء ببغداد في شهر رمضان يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٤ هـ: «في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها لحم الضأن والخبز الجيد عمل ذلك في جانِبَي بغداد وجعل في كل دار من يوثق في أمانته، وكان يعطى كل إنسان قدحًا مملوءا من الطبيخ واللحم وبعضًا من الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة»[1].

وبمرور الوقت انتشرت دور الضيافة الرمضانية في معظم مدن العالم الإسلامي لتسد حاجات الفقراء من الطعام في رمضان، وأوقفت عليها أوقاف كثيرة من عقارات وأراض. الخ، وأدت دورًا هامًا تقلص في عصرنا الحاضر كثيرًا وأصبحنا نفتقد دور الضيافة بأنواعها في معظم مدننا المعاصرة، فضاع مصدر هام من مظاهر التكافل الاجتماعي.

٦- موارد المياه:

مصادر المياه ثلاثة هي: الأنهار، والآبار، والعيون.

ولكن يبرز سؤال هام هو كيف واجه المسلمون مشكلة ندرة المياه؟ ولنعد بالذاكرة إلى العصور الأولى الإسلامية؛ ففي الربذة تم الكشف عن منشآت مائية متنوعة منها برك المياه الكبيرة، وكانت تستخدم لحفظ مياه الأمطار والسيول. وكذلك وجد بها نظام دقيق لخزن المياه داخل المنازل السكنية في

١- ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ١٢ ص ٢٧٨ دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ.

خزانات أرضية حفرت وبنيت بطريقة هندسية بارعة تحت مستوى أرضيات الغرف والساحات السكنية[١]، وقد عانت جدة من ندرة الماء كثيرًا، فحينما زارها البشارى وصفها بأنها عامرة، أهلها أهل تجارات ويسار... وأهلها في تعب من الماء، وفى منتصف القرن الخامس الهجري قدم ناصر خسرو وشاهد جدة ووصفها، وأفاد بعدم وجود الأشجار والزرع رغم ازدهارها العمراني، وسبب ذلك قلة الماء. وقد اعتنى السلطان قانصوه الغوري عندما كان حاكمًا للحجاز بأزمة المياه وتحويل مياه الشرب من الصهاريج التي تجمع بها مياه السيول والأمطار إلى مياه عذبة التي تجلب من المناطق الغربية من جدة. فجلب الماء من «وادي قوس» الواقع شمال الرغامة والرغامة تبعد عن جدة حوالي ١٢ كيلو متراً[٢].

لقد حرص الخلفاء العباسيون على توفير المياه لعاصمتهم بغداد فأقيمت في عهد المنصور قناة تأخذ مياهها من كرخايا، إحدى روافد الفرات، وتجري في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالآجر من أعلاها، يتنفذ في أكثر شوارع بغداد صيفًا وشتاء، وقد صممت على أن تكون دائمة الجريان طوال أيام السنة. وتتابع اهتمام خلفاء بني العباسي بشق الأنهار والقنوات إلى بغداد وضواحيها لتوفير المياه بجميع المدن[٣]. وكانت الموصل تشكو من قلة المياه فيها، فسعى أميرها الحر بن يوسف إلى شق نهر إلى داخلها أكمله من بعده خالد بن تليد[٤].

استخدمت أساليب أخرى أكثر تركيبًا من الناحية الإنشائية في توصيل الماء من مصادره البعيدة المنخفضة عن مستوى موضع المدينة أو المرتفعة

١- د. سعد بن عبد العزيز الراشد، الربذة، ص ٧٢ : ص ٧٠ .

٢- محمد سعيد فارسى، جدة التخطيط والعمارة الإسلامية، ص ١٤ أمانة جدة .

٣- ياقوت الحموى معجم البلدان جـ٢ ص ٢٣٦ . مصطفى عباس الموسوى العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص ٣٠٤ دار الرشيد للنشر ١٩٨٢ .

٤- أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدى تاريخ الموصل تحقيق د. على حبيبة ص ١٩٧ القاهرة ١٩٦٧، مصطفى الموسوى المرجع السابق ص ٢٠٣ .

عنها، كإنشاء القناطر التي يعلوها مجرى لنقل الماء، حيث يرفع إليها الماء بواسطة السواقي من المكان المنخفض مثل قناطر ابن طولون والتي مازالت قطع منها واضحة في شرق قرافة الإمام الشافعي[1].

وتدين العاصمة الإسبانية مدريد في فضل سقياها وريها، بل بحياتها كلها إلى نظام مبتكر عرف المسلمون كيف يتقدمون به تقدمًا عظيمًا جديرًا بالإعجاب. أما عن نسبته إلى المسلمين مؤسسي مجريط فأمْرٌ لا يمكن أن يكون فيه أدنى شك، وإن كان بعض من عرفوه من مؤرخي مدريد قد حاولوا نسبته إلى الإغريق أو الرومان غير أن ذلك لا تشهد به السوابق التاريخية، فالإغريق والرومان لم يكن لهم أبدًا تفوق ولا خبرة بهذا النظام، صحيح أن الرومان برعوا في بناء مجاري ضخمة رفعوها على قواعد هائلة من الصخر، ولكن مجاريهم كانت من النوع الظاهر على سطح الأرض، غير أنهم لم يكن لهم قط تمرس بأمثال تلك القنوات الجوفية المحفورة في باطن الأرض مما يسهل معه القطع بأن تلك التي نراها في مدريد تدين في فضل إنشائها إلى العرب كما تدين لهم المدينة نفسها بوجودها. وتطلعنا الأبحاث التي أجراها الأستاذ أوليفر أسين مؤرخ مدريد على حقيقة طبيعة الأرض في مدريد، فهذه الهضبة المنبسطة التي تقوم عليها المدينة تتألف من طبقتين أرضيتين: الأولى والعليا أرض رملية تتشرب الماء تليها من أسفل طبقة أخرى من طين أحمر يضرب إلى الصفرة مصمت لا يمتص الماء، ومن تحت هذه الطبقة توجد مياه غزيرة عذبة[2].

ولابد أن المسلمين، بمقتضى خبرتهم في استخراج هذه المياه الباطنية عن طريق المجارى الجوفية، قد بدأو بهذه الأبحاث «الجيولوجية» في أرض مجريط، واكتشفوا هذه الثروة المائية الهائلة التي تحتفظ بها المدينة في باطن الأرض، وهكذا طبقوا فيها ما كانوا يعرفونه من تلك النظم الإسلامية

١- د. فريد شافعي المرجع السابق ص ٣٥ .

٢- د. محمود علي مكي مدريد العربية ص ٥٧، ٥٩ دار الكاتب العربي .

التي نقلوها من المشرق الإسلامي في نيسابور ومرو وفي الجزيرة العربية.

وتتجلى مقدرة المهندسين المسلمين في التمكن من حساب العمق الذي توجد عليه تلك المياه الجوفية ثم حفر آبار تصل إليه والتوصيل بعد ذلك بين هذه الآبار بقنوات يراعى فيها أن تحفر في الطبقة الأرضية التي لا تمتص الماء وأن تكون منحدرة انحدارا خفيفًا يسمح بإجراء الماء بغير توقف، وقد كانت هذه القنوات تصنع من فخار مدريد نفسها، وهو فخار ممتاز نوه الجغرافيون العرب أنفسهم بأنه من أجود ما يعرف من الأنواع، إذ هو مصمت لا يتشرب السوائل قوي متماسك لامع يشبه الخزف.

ويكون حفر تلك الآبار في مواضع مرتفعة عن مستوى المدينة وفى ضواحيها الخارجة عنها، أما القنوات الجوفية فتتجه مقتربة من المدينة، وهي تتألف أولًا من قناة ضخمة هي «الأم» ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغار فرعية. وفى كل «عقدة» يتجمع عندها عدد من تلك الفروع يقام خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار، وهذه الخزانات هي التي يتحكم من خلالها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعًا عادلًا بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد ولا يسمح بدخولها إلا «للقنواتى» الذي يوكل إليه الصهريج ويكون مسؤولًا عنه، ويحتفظ بمفتاحه[1]. وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقيا الناس والبيوت، وتكون أحيانًا على ظهر الأرض وأحيانًا أخرى في باطن الأرض، إذا كانت القناة التي تمده على عمق شديد، حينئذ لا يوصل إليها إلا بسلالم تصل في بعض الأحيان إلى نحو ستين درجة.

١- عرف هذا النظام في العمارة المملوكية . باسم مقاسم المياه، والمقسم حوض غير عميق تصل إليه المياه من الساقية، وله عدة فتحات قد تختلف في الاتساع تتصل عن طريق قنوات بأجزاء البناء المختلفة، فيتم توزيع المياه منها حسب الكمية المطلوبة لكل جهة . د . محمد محمد أمين وليلى إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٣ .

ويلاحظ أن الآبار الأولى التي حفرت لكي تمتد منها هذه الشبكة من المجاري الجوفية تقع إلى شرق مدريد وشمالها. وهذه المواضع تبعد عن وسط المدينة عند تأسيسها على أيدي المسلمين بما يتراوح بين سبعة واثني عشر كيلو مترات. أما الفرق بين سطح الأرض عند الآبار الأولى التي تولد فيها القنوات الجوفية وسطحها في وسط المدينة فيتراوح بين ثمانين ومائة متر تقطعها القنوات في انحدار متدرج يسمح بانصباب الماء[١].

ويتضح لنا مما سبق ذكره أنه لم يكن من الغريب أن يطلق الأندلسيون على مدينتهم الجديدة لفظًا مثل مجريط وهو مركب من «مجرى» العربية ومن تلك النهاية اللاتينية الدارجة (يط) التي تدل على التكثير، فمعنى الكلمة إذن «المدينة التي تكثر فيها المجارى» والإشارة هنا إلى المجارى أو القنوات الجوفية التي كانت تحمل الماء إلى سكان المدينة[٢].

وقد استخدمت هذه الفكرة في مدينة مراكش على يد مهندس أندلسى يدعى عبدالله بن يونس، والواقع أن متأمل كتب الجغرافية والرحلات تتملكه الدهشة والاستغراب إزاء ما يصفون به مراكش من التمدن والعمران واتساع الزروع وكثرة الماء والشجر والثمر فيها، إذ إنها مدينة لا تقع على نهر كبير ولا تكاد السماء تمطر فيها إلا قليلًا ومع ذلك فقد كانت أشبه بواحة خضراء في وسط صحراء جرداء مقفرة، ولكن الإدريسى استطاع أن يكشف لنا سر هذه المدينة التي مازالت تعتبر من أجمل مدن المغرب وأكثرها إشراقًا ونضرة. ويرجع السر في ذلك إلى الماء الذي عرف المهندس العبقري ابن يونس كيف يولده من باطن الأرض. وما زالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية في مدينة مراكش، ويبلغ عددها نحو ٣٥٠ قناة يصل كل منها إلى نحو خمسة كيلو مترات، على أن الإهمال قد لحقها أخيرًا وبطل استعمال عدد منها[٣].

١- د. محمود علي مكي: المرجع السابق، ص ٥٩، ٦٠، ٦١.

٢- المرجع السابق ص ٦٥، ٦٧.

٣- المرجع السابق ص ٥٣، ٥٤.

انتشرت في العالم الإسلامي تقنيات متعددة لاستنباط المياه، ففى عمان استخدمت الأفلاج[1] حيث يوجد على أعلى قمة بها الفتحة التي يتم سحب المياه منها، ثم يبدأ سريان المياه في قناة تتجه نحو القرية حتى يصل الفلج للمنطقة المزروعة ثم يليها المنطقة السكنية والتي تقدم لها تسهيلات هي ماء الشرب، ثم أحواض الاستحمام، وأخيرًا مغاسل الموتى ولا يسمح بتحويل الفلج في المناطق المسكونة للأغراض الخاصة، ولا يمر تحت المباني، ولكنه يمر تحت المساجد حيث تستخدم مياه الفلج للوضوء، ويتضح لنا من خلال هذا الوصف الموجز أن مياه الفلج تعتبر ملكية عامة، لا حقوق للأفراد فيها. ولهذا السبب توجد بعض الآبار في المناطق السكنية لزيادة كميات الماء للاستخدام الداخلي. ويتكون الفلج من عدة قنوات مصممة لسد احتياجات الماء في أماكن معينة، وبجداول زمنية محددة، بينما يتحمل منظموا الفلج مسؤولية التأكيد من عمل هذه القنوات بكفاءة[2].

ويعطينا الكرجى، وهو أحد كبار علماء الرياضيات المسلمين (٥هـ - ١١م) -عاش في القرن الخامس الهجري الحادى عشر الميلادى- أقدم القواعد المعروفة في بناء قنوات توزيع مياه الآبار واستخدامها لري البساتين، ولتزويد السكان بالماء الصالح للشرب[3].

إنَّ حاجتنا شديدة إلى التعمق في دراسة هذه الطرق الفنية لاستخراج المياه التي توجد في العالم الإسلامي، بهدف مقارنتها بعضها ببعض، وإبراز الصلة بينها وتحليل نتائجها والاستفادة منها. وقد أشار الأستاذ فيرنيت

١- يقول ابن سيده الأندلسي في المحكم «إن الفلج هو النهر، وقيل هو النهر الصغير، وقيل هو الماء الجاري من العين .... والجمع أفلاج ويذكر ابن منظور في لسان العرب بأن الفلج قد يوصف به فيقال ماء فلج، وعين فلج، وقيل الفلج الماء الجاري من العين.

٢- جى . رسى : ولكنسون : الأفلاج ووسائل الرى في عمان، ص ٥٥، ٥٩، وزارة التراث القومى والثقافة عمان ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

٣- د. فرانسيسكو ساردا : الأفلاج العمانية ومجارى المياه ص ١٨٧، ندوة الدراسات العمانية حصاد - الجزء الثامن - ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

إلى طبعة مبكرة لكتاب «إنباط المياه الخافية»[1].

وهناك جانب آخر قد يكون مفيدًا، هو تأمل القواعد القانونية لتوزيع المياه، تلك القواعد التي نجدها في المخطوطات التي لم تحقق حتى الآن، وإن نشر القليل منها حديثًا، مثل مخطوطة «علم المياه الجارية في مدينة دمشق» أو «رسالة في علم المياه» التي كتبها الشيخ محمد حسين العطار الدمشقى المتوفى سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م، وهي مخطوطة حديثة نسبيًا[2].

لم يقتصر الاهتمام على إنشاء القنوات والمجاري والأنهار الصناعية، بل امتد إلى الأنهار الطبيعية كنهر النيل فأقيمت مقاييس لتحديد منسوبه من أشهرها أثر معماري غاية في الأهمية وهو مقياس النيل بجزيرة الروضة المقابلة للفسطاط أو مصر العاصمة ويؤرخ في سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م، وهو من أجل الأعمال الهندسية، إذ أنه بئر عميقة يصل عمقها إلى نحو ١٢ مترًا وعرض فوهتها المربعة نحو ٦ أمتار، وشيدت جدرانها على طبلية من جذوع الأشجار حملت مداميك الأحجار المتقنة النحت. هذا وقد وضع في محور البئر وفوق الطبلية الخشبية عمود مرتفع بارتفاع البئر وله قطاع متعدد الأضلاع، وربط طرفه العِلْوي بكمرة قوية من الخشب ثبت طرفاها بجدران الفوهة. وحفر على أضلاع العمود علامات تمثل القراريط والأذرع لكي تبين ارتفاع منسوب الماء في البئر، وبالتالي منسوبه في النيل الذي يتصل به من خلال ثلاثة أنفاق فوق بعضها، وذلك كي تبدأ جباية الخراج عندما يصل منسوب الماء إلى مستوى معين. وكان ينزل إلى قاع البئر عند انحسار الماء بواسطة درجات سلم في جوانبه لإجراء أعمال الصيانة[3].

لم يقتصر الأمر على شق الأنهار وإقامة القنوات والمجاري، بل عرف

١- المرجع السابق : ص ١٨٨ .

٢- محمد حسين العطار الدمشقى : «علم المياه الجارية في مدينة دمشق» تحقيق أحمد غسان سبانو – نشر دار قتيبة – دمشق ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٣- د. فريد شافعي : المرجع السابق، ص ١٣١ .

المسلمون استغلال قوة جريان المياه كطاقة متجددة، فيذكر القزويني أن أهل الموصل «انتفعوا بدجلة انتفاعًا كثيرًا مثل شق القناة منها، ونصب النواعير على الماء يديرها الماء بنفسه، ونصب العربات وهي الطواحين التي يديرها الماء في وسط دجلة في سفينة، وتنقل من موضع إلى موضع»[١]، ويشير هذا إلى استغلال الماء الجاري في الأنهار والقنوات المتفرعة منها في إدارة الطواحين التي تعمل بالماء كطاقة حركية مفيدة. وانتشرت هذه الظاهرة في العديد من المدن، ولعل أشهرها فاس[٢]، التي يذكر الحميري عنها ما يلى «وفيها أرحاء للماء نحو ثلثمائة وستين رحى يضمها السور»[٣].

وننتقل إلى نقطة أخرى هامة وهي حرص المسلمين على توفير المياه للمارة في الطرق وعابرى السبيل وذلك عن طريق السقايات العمومية أو الأسبلة[٤]. والسبيل أصبح مصطلحًا للوحدة المعمارية التي تعمل على توفير مياه الشرب للناس.

والسبيل، كمنشأة معمارية بالشكل الذي اتبع حتى القرن التاسع عشر الميلادى، ظهر على الأرجح في العصر المملوكي، ومهما اختلفت طرز السبيل وأشكاله فإن تكوينه المعماري ظل واحدًا وهو تكوين يخدم وظيفته ويتكون السبيل من ثلاث طوابق الأول في تخوم الأرض وهو الصهريج الذي يملأ بالماء، والطابق الثاني أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل وتمثل حجرة السبيل أو «حانوت السبيل» ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذب من الصهريج. أما الطابق الثالث أي العلِّوي فهو غالبًا قاعة لتعليم الأيتام (أي كتاب) وأحيانًا كان يخصص

١- القزوينى : آثار وأخبار العباد، ص ٤٦٢ .

٢- د. عبد الستار عثمان : المرجع السابق، ص ٢٧١ .

٣- محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٤٣٤ تحقيق د. إحسان عباس نشر مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠.

٤- سبل الشيء أي جعله مباحًا في سبيل الله . د. محمد أمين : المرجع السابق، ص ٦٢ .

الدور الثالث للمزملاتي وهو الشخص المسؤول عن التسبيل، وتبنى الأسبلة مفردة أو ملحقة بالمساجد والمدارس أو ملحقة بالمنازل كما نرى في منازل رشيد الأثرية، مثل: منازل رمضان البقروالى وعرب كرلى. ولم يقتصر اهتمام المسلمين على توفير المياه للإنسان فقط بل امتد إلى توفيرها للدواب على طرق المدينة الداخلية أو الطرق التي تربط بين المدن، وذلك عن طريق «أحواض سقي الدواب» التي اعتبرت من المنشآت الخيرية الهامة والتي انتشرت في كل مدن العالم الإسلامي كالقاهرة وحلب وفاس. ومما سبق يتضح لنا ضرورة الاهتمام بالتعمق بدراسة الطرق الفنية لاستخراج المياه، التي توجد في العالم الإسلامي، بهدف مقارنتها بعضها ببعض، وإرساء قواعد الصلة بينها وتحليل نتائجها والاستفادة منها واقعيًا.

ويوجد جانب آخر مهمل، وهو تأمل القواعد الرياضية القانونية لتوزيع المياه، تلك القواعد التي نجدها في المخطوطات التي لم تحقق حتى الآن، والتي قد توجد في المكتبات ودور المحفوظات في العالم كله، وخاصة أن علماء المسلمين قد اهتموا بهذا الجانب الحيوى ليس فقط بالنسبة للمدينة الإسلامية، بل أيضًا بالنسبة للدولة الإسلامية ككل، لصلته الهامة بالزراعة والرعي وطرق التجارة. فالماء عصب الحياة.

٧- المراصد الفلكية:

عرفت الحضارات القديمة علم الفلك وارتبط بالتنجيم ومعرفة الغيب، وهو ما ألقى بظلاله على علم الفلك عند المسلمين حتى عهد قريب، ولكن في حضارة الإسلام، تلك الحضارة التي نبذت التنجيم واعتبرته مخالفًا لعقيدتها، انفصل علم الفلك عن التنجيم، وأصبحت له قواعده العلمية التي يرتكز عليها. ولم يكن هذا الانفصال وليد الصدفة بل وليد التجربة العلمية والقياس والاستنباط، والحاجة الإسلامية لتحديد مواعيد الصلاة واتجاه القبلة، حتى أصبحت المساجد الجامعة لا تخلو من فلكيٍّ يقوم بتحديد الوقت

من خلال واحدة من الآلات الفلكية التي ابتكرها المسلمون.

لقد كان علم الفلك في الحضارات القديمة تائها، ولكن مع العصر العباسي وفي خلافة المأمون بن هارون الرشيد، صار لهذا العلم موقع خاص، فلأول مرة نرى مراصد كبيرة لها مواقعها الثابتة والمتميزة، وآلاتها الضخمة المصنعة بعناية، والرعاية التي حظيت بها من قبل الدولة، وعدد الفلكيين الذين ارتبطت أسماؤهم بها.

ويرى أيدين هاييلي، أبرز الباحثين الأتراك الذين درسوا المراصد الفلكية، أنه نشأت ظروف اقترنت بالإسلام، وكانت مواتية لتطور المراصد كمؤسسات، فلقد كانت هناك مرتبة خاصة لعلم الفلك في العالم الإسلامي، وكان هناك اهتمام بالرصد المباشر وبدقة القياسات، وبالنظريات الرياضية، وبزيادة حجم الآلات، والإصرار على ممارسة الفلكيين أعمالهم في مجموعات، وبالميل إلى التخصص في مجالات ضيقة، وبالنزعة التجريبية عند علماء الإسلام.

كان للمراصد في عصر المأمون عدة سمات هامة لعل أهمها البرامج البحثية المحددة، كانت المهمة الأكبر لتلك المراصد الأولى إيجاد جداول فلكية مبنية على أرصاد حديثة للشمس والقمر فقط. ولكن فضلًا على كون البرامج المرسومة لها محدودة، فإنها كانت عفوية بعض الشيء من حيث الإدارة والتنظيم المالي. والواقع أن طبيعة العمل المحدودة التي أنيطت بمرصدي المأمون في الشماسية وقاسيون قد جعلتهما لا يرقيان إلى مستويات المراصد المتكاملة التي عرفها العالم الإسلامي فيما بعد.

ظهر المرصد الإسلامي بشكل أكثر تطورًا بعد زمن المأمون بحوالي قرن ونصف قرن، وكان أكثر تنظيمًا من الناحية الإدارية، وعندما نشأ مرصد شرف الدولة أصبح له مدير يشرف على تدبير شؤونه. واقترن ذلك بتوسعة برنامج الرصد بحيث صار يشمل الكواكب كافة. ولقد أمكن تحقيق هذا

الجانب الأخير من تطور المراصد على مرحلتين، ذلك أن هناك دليلًا على أن بعض برامج الرصد قد اقتصرت على مشاهدة الكواكب السريعة فقط إلى جانب الشمس والقمر.

وكانت المهمة الرئيسية للأعمال التي يضطلع بها المرصد تتمثل في إقامة جداول فلكية جديدة لكل الكواكب مبنية على أرصاد حديثة، وكان هناك ميل واضح نحو تصنيع آلات تزداد حجمًا على مر الزمن ونزوع إلى توفير هيئة عاملة متميزة، وذلك بموجب التقدم الذي أمكن تحقيقه في هذا الاتجاه أيضًا. ومن شأن التطورات أن تعمل على تعزيز اعتقاد مفادة أن نشأة المراصد، باعتبارها مؤسسات، ترجع في أصلها إلى الخلفاء والملوك.

ويعد المرصد الذي شيده السلطان السلجوقى ملكشاه في بغداد مرحلة أخرى من مراحل تطور العمل في المراصد، وإن لم يتوافر لدينا إلى الآن معلومات كافية حول عمل هذا المرصد، وظل هذا المرصد يعمل لفترة تزيد على عشرين عامًا، وهي فترة زمنية طويلة نسبيًا بالنسبة لعمر المراصد، وقد قدر الفلكيون آنذاك أن إنجاز عمل فلكي يحتاج إلى فترة زمنية لا تقل عن ٣٠ عامًا.

يعد القرن السابع الهجري أهم حقبة في تاريخ المراصد الإسلامية، لأن بناء مرصد المراغة تم في هذا القرن، ويعد هذا المرصد واحدًا من أهم المراصد في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتقع المراغة بالقرب من مدينة تبريز. وقد بني خارج المدينة ولا تزال بقاياه موجودة إلى اليوم. وقد أنشأه مانجو أخو هولاكو. كان مانجو مهتمًا بالرياضيات والفلك، وقد عهد إلى جمال الدين بن محمد بن الزيدى البخاري بمهمة إنشاء هذا المرصد، وصنعت معدات المرصد في سنة ٦٦٠ هجرية، واجتمع للعمل في هذا المرصد عدد هائل من العلماء منهم نصير الدين الطوسي، وعلي بن عمر القزويني، ومؤيد الدين العرضي، وفخر الدين المراغي، ومحي الدين المغربي وغيرهم كثير.

ويعد مرصد المراغة أول مرصد استفاد من أموال الوقف، إذ وقفت عليه عقارات وأراضي، لكي يتم ضمان استمرارية العمل به. ولذا ظل العمل جاريًا بالمرصد إلى العام ١٣١٦ م وشهد حكم سبعة سلاطين اهتموا به ورعوه.

وتكمن السمة الثالثة لمرصد المراغة في النشاط التعليمي الهام الذي تم فيه. فقد درس العديد من الطلبة بالمرصد علم الفلك واستعمال الآلات الفلكية، كما كان بالمرصد مكتبة ضخمة ضمت آلاف المخطوطات في شتى مجالات المعرفة.

وهناك مرصد آخر هو مرصد سمرقند، وقد أسس هذا المرصد «أولغ بك» حفيد تيمورلنك في سمرقند، وفي عام ١٩٠٨ كشف عن موقع هذا المرصد حين نجح ج. ل. فاتكن في العثور على وقفية من وقفياته تحدد مكانه بالمدينة. واستطاع أثناء تنقيباته الأثرية أن يعثر على قوس كبير كان يستخدم في تحديد منتصف النهار يعتبر من أهم الأدوات الفلكية في المرصد.

يقع فناء المرصد، الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٢١ مترًا، على تلة ذات قاعدة صخرية، وتبلغ مساحة سطح تلك التلة حوالي ٨٥ مترًا من الشرق إلى الغرب، وحوالَي ١٧٠ مترًا من الشمال إلى الجنوب. وتحيط بالمبنى الرئيسي للمرصد حديقة وأماكن إقامة لغرض السكن. وهذا ما يدل على فخامة المبنى وعظمته. ويستدل من الاكتشافات الأثرية أن ذلك المبنى كان أسطواني الشكل، وذا تصميم داخلي دقيق ومحكم.

ولم يكن دمار مرصد سمرقند وزواله ناجمين، في رأي فاتكن، عن عوامل طبيعية، إذ من المحتمل أن يكون بعض الدمار قد نجم عن استخدام رخامه في عمليات بناء أخرى. وقد وضعت جداول فلكية في المرصد، عرفت بجداول أولغ بك تعد من أدق الجداول في العالم. ومن المعروف أن قبة المرصد

استغلت في وضع الجداول حيث كان يوجد بها نقوش تحدد الدرجات والدقائق والثواني وأعشار الثواني لأفلاك التدوير، وللكواكب السبعة، وللنجوم المتحيرة، وللكرة الأرضية بتقسماتها من حيث الأقاليم والجبال والصحارى. وممن عملوا في هذا المرصد غياث الدين الكاشي الذي برع في ميدان النماذج الميكا نيكية للحركات السماوية.

٨- الحديقة الإسلامية:

ارتبط توفير المياه في المدن الإسلامية بوجود عنصر هام من عناصرها العمرانية وهو الحديقة، ولعل من الهام، بادئ ذي بدء، أن نؤكد على أنه من الحكمة، بل ومن الضرورة، أن نعالج موضوع الحديقة الإسلامية على مستوى شمولي للعالم الإسلامي كله وليس على نطاق ضيق لمنطقة جغرافية محدودة، إذا اتبعنا هذا القول سنجد أن مهمتنا في تعريف الحديقة الإسلامية أصبحت مهمة ضخمة في حجمها لأنها ستمتد لثلاث قارات هي آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإذا نحن ألقينا نظرة على الأمثلة الباقية حتى يومنا هذا من الحدائق الإسلامية التاريخية فسنجد أنها تشمل حقبة زمنية واسعة جدًا[١].

وقد ساد الاعتقاد في الأوساط العلمية دائمًا أن الحديقة الإسلامية التقليدية فقط حدائق الدولة الأموية في الأندلس وحدائق مدن فارس أمثال أصفهان وشيراز وأشرف، وحدائق دول المغول الإسلامية في القارة الهندية وقد حان الوقت لتصحيح هذا التصور الناقص عن طريق القيام بدراسات متكاملة في شتى أنحاء العالم الإسلامي لبيان الأمثلة العديدة في الجزائر والمغرب وتونس ومصر وتركيا وصقلية والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية وبلاد الصين وسمرقند التي وصفها أحد السفراء الإسبان في القرن ٩هـ/ ١٥م بقوله «إنه توجد بساتين وكروم كثيرة بالمدينة حتى أنه عندما يراها المرء يجدها وكأنها تتوسط غابة حقيقية من الأشجار الباسقة»[٢]. وقد يتساءل البعض في دهشة: كيف تميزت الحدائق الإسلامية في تصميمها بطابع وشخصية فريدة رغم تباعد المسافات بينها ورغم اختلاف مناطق مصمميها ومنشئيها، بل

١- صفيّ الدين حامد : الحديقة الإسلامية، ودور مصمم المواقع في تطوير المدينة العربية، ص ٨٣، بحث بكتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي.

٢- محمدين ميرزا محمدوف : كنوز العبقرية البشرية، ص ١٠.

وأيضًا تفاوت أوقات إنشائها؟ والرد على هذا يمكن تفسيره من خلال اعتبارات ثلاثة هي الإسلام الذي صاغ حياة المسلمين صياغة شاملة، واستفادة المسلمين من الحضارات القديمة، ثم البيئة الطبيعية.

- تأثير البيئة الطبيعية:

على عكس دول أوروبا وأمريكا، نجد أن العالم الإسلامي امتد غالبًا في بلاد تقع معظمها في بيئة صحراوية أو شبه صحراوية. وقد كان الرد المنطقي لتهذيب ومعالجة هذه البيئة الرتيبة الخشنة هو محاولة تقليد الطبيعة التي أعطت الواحات الخضراء في وسط القفار الصحراوية الممتدة، وهكذا بدأ مصمم الحدائق الإسلامية في إنشاء أمثلة مصغرة لهذه الواحات الخضراء في شكل حدائق خاصة ملحقة بالبيوت أو رياض ملحقة بالقصور وحدائق عامة تابعة للمساجد والمدارس والمبانى العامة والميادين الموجودة في كل مدينة إسلامية.

وأهم خصائص المدينة في عصور الإسلام المزدهرة هي إنشاء شبكة من الحدائق تخللت أنحاءها، وعن هذا المجال، مجال إدخال المناطق الخضراء في النسيج العمرانى للمدينة الإسلامية، كتب (Garrettechbo) المؤلف المشهور، وأستاذ علم تصميم المواقع بجامعة كاليفورنيا في أحد كتبه: «نستطيع مشاهدة أمثلة ممتازة من الحدائق في أواسط آسيا وشمال الهند حتى إيران وجزيرة العرب وشمال إفريقيا وأسبانيا، وكل هذه الحدائق كانت حدائق مغلقة محاطة ومعزولة بأسوار أو مبان ضد رمال الصحراء وخشونة الجو، ويعتبر خلط الطبيعة بالبيئة العمرانية هو أحد مميزات المدينة العربية القديمة وشمل عناصر مختلفة مثل الجبال والأنهار والغابات والتلال».

ولعله من النادر فعلًا أن نجد وعيًا متكاملًا بالفوائد الانتفاعية للنباتات المستعملة في تصميم الحدائق كما وجدناه في تصميم الحديقة الإسلامية القديمة. فأما من ناحية معالجة المناخ المحلي فقد استعمل مصمم الموقع

صفًا من أشجار السرو حول حدود الحديقة كدرع واق ضد العواصف الرملية طوال العام، ونظرًا لجفاف الهواء المتسرب من خلال هذا الصف الأول من النباتات أضاف المصمم صفًا آخر من أشجار الحور الأبيض Poplortre لترطيب الموقع وبواسطة هذين الصفين المحيكين بالحديقة واللذان يبلغان حوالي ٣٠ قدمًا في الارتفاع تمتع الموقع في أغلب ساعات النهار بظل وحماية من أشعة الشمس الحارقة والتي تسبب مشاكل جمة للإنسان والنباتات على السواء.

ويستطيع الباحث المدقق أن يجد كثيرًا من المعلومات عن النباتات المستعملة في زمان إنشاء الحدائق الإسلامية الشهيرة من خلال تراجم معاصريها. فمثلاً، في مذكرات بابل أول أباطرة الدولة المغولية الإسلامية في بداية القرن ١٠ هـ / ١٦ م، ذكر مفصلا للحدائق التي أنشأها في عهده بكشمير كما نجد في مذكرات أخرى رسومات توضيحية لأنواع الأشجار والزهور والأعشاب المستعملة. ويبدو واضحًا أنه اعتنى عناية خاصة بأشجار الفواكه كالبرتقال وكروم العنب لفوائدها الغذائية.. ولأنها تضيف روائح عطرة للهواء المحيط بالدور والقصور والضياع المحلقة بها، هذا إلى جانب أنها تجلب وتجتذب أنواعًا معينًّ من الطيور التي تضيف بأصواتها أنغامًا يسعد بها أهل الدار وجيرانهم والعابرون على السواء[1].

وفي مقابل هذا الثراء الجمالي والبيئي تتميز المدن المعاصرة بالفقر الحدائقي، ولابد من إدراك حقيقة هامة من قبل مخططى المدن، وهي أن الحدائق لم تعد من ضروب الترف غير الهادف، بمعنى أنه من الضروري اليوم احتساب المساحة الحدائقية على أساس الوحدة الخضرية الكلية.

إن نظرة مقارنة بسيطة على واقعنا الحدائقي توضح لنا العجز الحدائقي الذي تعاني منه مدننا الإسلامية، بل الحال تشتد سوءًا في المدن التي تكون

١- صفِيّ الدين حامد، المرجع السابق، ص ٨٤ .

أحزمتها النطاقية جافة، حيث تقل الخضرة التي تحيط بها لدرجة كبيرة، على الرغم من الجهود المضنية والأموال الباهظة التي تنفقها بعض دول الخليج من أجل العناية بهذا المرفق الحدائقي الهام على شاكلة ما فعلت دولة قطر عند تنفيذها لحدائق الخليج العربي في الدوحة، وكذا ما تم في الإمارات العربية المتحدة والكويت وغيرها من دول الخليج[1].

- **مستقبل الحديقة الإسلامية:**

لم تتبق في المدن الإسلامية اليوم حدائق تحمل الطابع الإسلامي الأصيل سوى بقايا البيوت والقصور الأثرية... ولولا أننا نحرص في الأغلب على الطابع الفني للمساجد وتخطيطها لاندثر تمامًا أي أثر يدل على شخصيتنا الفنية في تصميم المواقع.

وقد يقال إن العصر وابتكاراته فرض هذا الاتجاه، وأنه يمثل تيارًا جارفًا لا يمكن الوقوف في وجهه. وقد يقال كذلك إن خامات العصر الحالي ومواد البناء الجديدة تفرض علينا أساليب مستحدثة وتؤثر على كيفية تصميم المواقع، وبالطبع فإن هذه الأقوال التبريرية وغيرها لا يمكن قبولها كذريعة لإهمال الطابع الفني الإسلامي.

ونحن اليوم إذ ندعو إلى إحياء التراث الفنى وإلى التمسك بالشخصية الإسلامية في تصميم الحدائق وتخطيط المواقع، فليس القصد أن نتمسك بحرفية الطراز الإسلامي التاريخي وتفصيلاته، وبالتالي نطلب إيقاف حركة الإبداع والتجديد، ليس هذا هو القصد بأي حال من الأحول، ذلك أن إحياء التراث الحضاري الإسلامي يعنى، ببساطة، التجديد الواعي الحكيم على أساس استيعاب مميزات الأصالة وابتكارات العصر، كما يعني أن يصبح تصميم مواقع الحدائق والميادين والمساجد والمباني العامة

١- سعيد محمد الحفار، المدن العربية والفقر الحدائقي من خلال مطالعة بيولوجية نفسانية ص ٦٠، ٦١ مجلة المدن العربية العدد ١٧، السنة الرابعة، شوال ١٤٠٥ هـ / يوليو ١٩٨٥ .

في المدينة الإسلامية ذا شخصية واضحة وليست تقليدًا حرفيًا للآخرين وفى نفس الوقت ملائمًا لظروفنا المعاصرة وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية.

ومن ناحية أخرى، فإذا كانت المدينة الإسلامية قد فقدت هذا العنصر الحيوى الذي ميزها عبر التاريخ.. عنصر العلاقة المتناسقة بين البيئة العمرانية بمبانيها ومنشآتها وبين بيئتها الطبيعية بعناصرها المختلفة، فلا تزال أمامنا فرصة لإعادة تغليب هذا التراث الحضاري الإسلامي (بعد تطويره بما يتلاءم مع العصر) وتطبيقه في المدن الجديدة والأحياء السكنية التي تتجه النوايا إلى تطويرها وتجديدها في شتى أنحاء العالم الإسلامي[1].

إن الأثر النفسى للحدائق أكد عليه الله سبحانه وتعالى حيث يقول: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[2]، وهو أثر هام يجب أن يدفع المسؤولين عن المدن الإسلامية إلى الاهتمام بالحدائق سواء على مستوى المجاورة السكانية أو على مستوى الحي السكني أو على مستوى المدينة كلها، وخاصة مع انتشار الأمراض النفسية في عصرنا الحاضر.

٩- مؤسستا القضاء والأوقاف ودورهما في المدينة الإسلامية:

من الخصائص الأساسية للمدن الإسلامية هو ذلك الشأن الهام الذي كان لاثنين من المؤسسات الإسلامية المتميزة هما: القضاء والوقف.

فالقاضي كان فاعلًا في مختلف نواحي المجتمع الإسلامي، الدينية

١- صفِيّ الدين حامد، المرجع السابق، ص ٨٤ : ٨٥ .

٢- النمل:٦٠ .

والاجتماعية والاقتصادية. ففى المدن كانت المحاكم الشرعية تبت في كافة المسائل المتعلقة بأهل المدينة، مثل علاقات الأفراد فيما بينهم، وعلاقاتهم مع السلطات التنفيذية، ثم الأعمال الحرفية والمهنية والشؤون البلدية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر وضع قضاة المذهب المالكي في المغرب العربي مبادئ للشؤون البلدية، وإن سجلات ودفاتر المحاكم الشرعية التي لا حصر لها هي التي تزودنا بمعلومات عن التطبيق اليومي للمبادئ البلدية، التي وضعها هؤلاء القضاة وبصفة خاصة خلال الفترة العثمانية. وعلى الرغم من أن الدراسات ما تزال قليلة في هذا المضمار، إلا أن الأبحاث الدولية التي تمت حتى الآن، مثل الدراسة التي قام بها جلال الدين النحال، تبين أهمية حضورهم في الشؤون البلدية البحتة.

وتراوحت الصلاحيات التي يمارسها القضاة بين تحديد شروط البناء والسكن (كالتي تتصل بالأمن والسلامة والضجيج وتعكير الصفو وحجب الأنظار) وتنظيم الحارات وتدبير شؤون الحرفيين، وما شابه ذلك من أمور. ومن المرجح أيضًا أن يكون شأن القضاة قد علا في هذا المجال خلال المدة العثمانية بحيث صار لهم الدور الحاسم في تقرير شؤون المدينة[1].

وكثيرًا ما استعانت السلطات الحاكمة بالقضاء في أمور تتعلق بتنظيم المدن على نحو ما حدث عام ٨٢٨هـ حيث أصدر السلطان قايتباي أمره إلى الأمير يشبك الدودار بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة بالقاهرة، فطلب الأمير من القاضي فتح الدين السوهاجى أن يحكم بهدم ما أنشئ في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعي من أبنية ورباع وحوانيت وسقائف ومصاطب وغيرها، وأصدر القاضي حكمًا بهدم تلك المباني وتم الهدم فعلًا.

وعلى الرغم من أن ذلك العمل عاد بالنفع الكثير من ناحية توسيع

١- د. أندريه ريمون، العواصم العربية عماراتها وعمرانها في الفترة العثمانية، ص ٧٥، ترجمة قاسم طويو، مجلة المدينة العربية، العدد ٢٤، ٦ رجب ١٤٠٧ هـ / مارس ١٩٨٧ م .

الطرقات إلا أنه عاد بالضرر على جماعة من الناس بسبب هدم مبانيهم، ولم يستثن من ذلك حتى أنه هدم لـ«خوند شقرا» ابنة الملك الناصرى فرج بن برقوق ثلاثة رباع، وقد تعرض القاضي لسخط العامة بسبب حكمه، وهذا ما دفع أبا حامد المقدسي تأليف رسالته المعنونة «الفوائد النفسية الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة والزاهرة»[١] لتوضيح الحق الذي يجب أن يتبع كيلا يحدث غبن أو هضم لحق الطريق، فأشار إلى أحكام الفقهاء وآرائهم في هذا الموضوع وتعرض لأنواع الطرق ونشأتها.

وتعتبر الأوقاف «الحبوس» المؤسسة الإسلامية الثانية التي كان لها شأن هام في التنظيم العمراني للمدن الإسلامية، ولقد كان هدف الواقفين تحقيق الأبعاد الإيمانية للحديث الشريف: «إذا مات العبد انقطع عمله من دنياه إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له بعد موته، وعلم ينتفع به، وصدقة جارية».

وكانت مهمة الأوقاف محصورة في أمرين هامين:

أولاً: صيانة أملاك الوقف والعمل على تنمية مواردها.

ثانيًا: العناية ببيوت الله ونشر الدين والثقافة الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم وإقامة المؤسسات الخيرية[٢].

لذلك كان نشوء المؤسسات الوقفية في المدن حافزًا كبيرًا على إنشاء الأعمال العمرانية وتنميتها ذلك لأن الأوقاف توفر لها الأساس الشرعي، والمال اللازم، فالفضل يعود للأوقاف في النمو العمرانى الذي شهدته المدينة القديمة في حلب خلال القرن ١٠هـ / ١٦م، والنمو العمرانى الذي شهده

١- نشرت بتحقيق للأستاذة الدكتورة آمال العمرى في سلسلة مشروع المائة كتاب عن هيئة الآثار المصرية.

٢- د. محمد شريف أحمد، مؤسسة الأوقاف في العراق ودورها المتعدد الأبعاد، ص٦٧، كتاب مؤسسة الأوقاف.

الجزء الجنوبى من القاهرة في منتصف القرن ١١ هـ / ١٧م، لقد انتشرت أعمال الوقف بالمدن الإسلامية لأسباب مختلفة انتشارًا واسعًا، ففي مصر كانت الأوقاف في عام ١٩٢٠م تتولى ١٨٥٠٠ بناءٍ وقفي، وفي الجزائر كان نصف أبنية المدينة وقفًا في عام ١٨٣٠م[١].

ولقد ساعد التطور في المجتمع الإسلامي وتشعب مؤسساته الاجتماعية والعلمية والثقافية وميل الناس وأصحاب الأملاك والموسرين منهم إلى المساهمة في شد أزر بعض هذه المؤسسات جنبًا إلى جنب مع السلطة القائمة تقربًا إلى الله ونشدانًا للخير ومشاركة في عمل البر، ذلك كله ساعد على انتشار نظام الوقف في العالم الإسلامي، وتعدد أوجهه، فهناك أعيان حبست على المدارس وعلى الذين وهبوا حياتهم للعلم أو الدين وأعيان حبست على الخانات، كما كانت هناك أعيان أوقفها المسلمون على المستشفيات ورصف الطرق وتعديلها ولفكاك الأسرى ولأبناء السبيل وللمعاونة على القيام بأداء فريضة الحج، ولإعارة الحلى الذهبية والزينة لكل عروس فقيرة حتى تبدو ليلة زفافها إلى عريسها في أكمل صورة. ولمن يغضبن من الزوجات اللائى ليست لها أسر يلجأن إليها، أو تكون أسرهن في بلاد بعيد فتؤسس لهن دار، جميع موظفيها من النساء يقدمن لهن الطعام والشراب حتى لا يتعرضن لأخطار المجتمع، وعلى رأس هذه الدار مرشدة تعالج أسباب الغضب وتهيئ نفوس الزوجات لعودة العلاقة الطيبة مع أزواجهن[٢]، ومن الأوقاف ما ينفق على عمارة الرباطات للمجاهدين وما يعطى معونة للعميان والمقعدين وتطبيب الحيوان.... الخ[٣].

١- د. أندريه ريمون، المرجع السابق ص ٧٥، ٧٦ .

٢- د. محمد عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، ص ١٦٨، مطبعة أسعد بغداد ١٩٦٥.

٣- صبحى الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ص ٣٧٠، دار العلم للملايين بيروت. د.صلاح حسين العبيدى، مؤسسة الأوقاف ودورها في الحفاظ على الآثار الإسلامية والمخطوطات، ص ١٨١، كتاب مؤسسة الأوقاف .

ولما كانت مؤسسة الأوقاف تضطلع بكل هذه المهام الكبيرة والمتشعبة، فإنه كان يتعذر على الباحث أن يتناولها كلها في بحث يلم بكل أبعاد المؤسسات، لأن الأوقاف منتشرة في أنحاء مختلفة، مع تعدد أنواع الوقوف.

كانت الأوقاف تدار في بادئ الأمر من قبل الواقفين أو ممن ينصبونه لإدارتها والنظر فيها دون إشراف أو تدخل الدولة، إلا أن كثرة الوقوف وتطور الحياة في المجتمعات الإسلامية استدعى قيام مؤسسة تتولى مسؤولية الإشراف المباشر على الأحباس (الوقوف)[١].

لقد أنشأ المسلمون في العصر الأموي أول ديوان أوكلت إليه مهمة الإشراف على الأوقاف، فكان القاضي «توبة بن نمر بن حوقل الحضري» أول قاض في زمن هشام بن عبد الملك، وفي عهده صار للأحباس ديوان مستقل عن بقية الدواوين بإشراف القاضي، حيث بدأ ولأول مرة بتسجيل الأحباس في سجل خاص لكي يحمي مصالح المستحقين فيها[٢]، ويعتبر هذا الديوان أول تنظيم للأوقاف في العالم الإسلامي.

وفي العصر العباسي، كان على الشخص الذي يعهد له القاضي بالإشراف على أموال الأوقاف وإدارتها والصرف عليها أن يقدم حسابه في نهاية كل سنة، فإذا أقر القاضي صحة الحساب، قسم «في سبله وعلى أهل الوقف»[٣].

بناء على صلاحيات القاضي من ناحية، ونظام الوقف من ناحية ثانية، تكون الشريعة الإسلامية قد وفرت السبل الفعالة لإدارة الشئون البلدية، وتنظيم التوسع العمرانى اللذين شهدا نموًا مماثلًا للنمو الذي شهدته المؤسستان القضائية والوقفية.

١- محمد عبد الله الكبيسى، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، جـ١، ص ٣٨، مطبعة الإرشاد بغداد ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٢- المصدر السابق ص ٣٨، د. صلاح العبيدي، المرجع السابق ص ١٨٠ .

٣- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ص ٦٤، جـ ١١ بيروت .

١٠- رعاية حق الجار في المدينة الإسلامية:

كان الإسلام سباقًا في وضع حقوق الجار، فقد ربط الأسرة والعشيرة بالجار في المعاملة والحيز المكانى الذي يجمعهم. قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾، وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». وقال ﷺ: «لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره». وقال ﷺ: «من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعوضه».

وقد خرج حفظ حق الجار من حيز التنظير إلى حيز التطبيق على أرض الواقع، وليس أدل على ذلك من وثيقة وقف شمس الدين محمد بن على الغيطانى، المؤرخة في نهاية ذي القعدة سنة (١٢٣٢هـ / ١٨١٧م)، لقد شرحت الوثائق المحفوظة بالمحاكم الشرعية الإجراءات التي كان يتم اتباعها عند البدء في إنشاء أي مبنى، حيث كانت الأعمال تتم بإشراف شيخ طائفة البنائين والمهندسين، وعلى المالك تقديم موافقة الجيران على البناء، وأخذ تصريح بذلك، وفيما يلي نص مقدمة الوقف المذكور والتي توضح هذا الأمر بجلاء:

- الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ، اطلعت على هذه الوقفية فوجدتها صحيحة لا غبار عليها، وقد سمعت مضمون ما فيها من الواقف المذكور وسمعت، منه لفظ الوقف وأنه وضع هذه الأماكن المذكورة في باطنه، على زبد البحر واستأذن نائب السلطان في ذلك وأجازه، بالبناء عليها والتصرف فيها واستأذن ملاك الأرض التي بجوارها، فأجازوه بذلك وحينئذ فيكون وقف هذه الأماكن صحيحاً لا معارضة، لأحد فيها وقد خرجت عن ملكه بمقتضى وقفه فليس لأحد ، تسلط عليها

بوجه من الوجوه بل ولا الواقف نفسه إلا ،بمقتضى شرطه وشروطه فيها صحيحة يجب العمل بها لأن ، شرط الواقف كنص الشارع والله تعالى أعلم، وقد أمرنى بذلك: مولانا وشيخنا العارف بالله الشيخ محمد العباسي وهو أيضًا يشهد بما شهدت به، وأنا الفقير كاتبه محمد البنا الحنفي عفى الله عني آمين[١].

وهذه الوثيقة من وثائق مدينة رشيد الهامة، ويوجد برشيد منزلان يرجعان إلى سنة ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م اشتركا في حائط بينهما، وهما متطابقان معماريًا فواجهتهما متشابهتان بحيث يعتقد الزائر أنهما منزل واحد، واشترك المنزلان في حائط واحد ربطهما معماريًا فضلًا عن الناحية الإنشائية حيث ازدادت قوة تحمل المنزلين.

وقد شاع في المدن الإسلامية تقليد ظل قائمًا إلى وقت قريب وهو اختيار المؤذنين من العميان وذلك يحمي البيوت المجاورة للمساجد من نظر المؤذن المبصر إليها أثناء صعوده، ومثال آخر يدل على مدى الحرص على عدم كشف حرمات البيوت وهو ما تشير إليه الرواية من أن سحنونًا سئل عن شخص شيد مسجدًا فوق حوانيته التي يملكها، وللمسجد شرفة يمكن الإطلال منها على البيوت المجاورة هل له الحق في عمل ذلك رغمًا عن جيرانه؟ فأجاب بأن صاحب المسجد عليه أن يبني حائطًا حول الشرفة لكي يحمي جيرانه، ولا يسمح للناس بالصلاة في هذا المسجد قبل أن يبنى هذا الحائط الساتر[٢].

ويدل مثال المئذنة والمسجد على مدى التشدد في منع كشف المحرمات بالإطلال على البيوت المجاورة، ويعكس مدى حرص السكان والقضاة والمحتسبين على تحقيق «الخصوصية».

١- محمود أحمد درويش، عمائر رشيد وما بها من التحف الخشبية ص ٢٧ رسالة ماجستير غير منشورة بمكتبة كلية الآثار . جامعة القاهرة .

٢- ابن الرامي الإعلان بأحكام البنيان، ص ١٦٣ تحقيق عبد الرحمن بن صالح .

وقد تعرضت الأحكام الفقهية لتحديد العلاقة بين هذه المباني وخصوصًا فيما يتعلق بمطلاتها وأبوابها لتمنع كشف المحرمات، وتحقيق الخصوصية لساكنيها، وكانت البداية عندما شكا أحد سكان «الفسطاط» إلى الخليفة عمر من إطلالة جاره عليه من غرفة بناها، فأرسل الخلفة عمر إلى عمرو بن العاص واليه على الفسطاط أن يهدم هذه الغرفة، وعندما علم أن ذلك لم يكن في نية المالك كتب مرة أخرى إلى عمرو أن يضع سريره خلف النافذة ويحاول الإطلال، فإن أطل على بيوت الجيران وجب إغلاق النافذة، وإن لم يتمكن، فإن للمالك أن يحتفظ بالنافذة[1]. وهذه الحادثة كانت الأساس الذي انطلق منه نظام النوافذ للضوء والهواء دون الإطلال على بيوت الجيران، وهو ما تبلور في العمارة الإسلامية فيما يسمى «بالمناور الحائطية» التي تسمح بالضوء والهواء من جهة الجيران، ولا تسمح بالإطلال عليهم لارتفاع مستواها بنسبة ارتفاع لا تمكن من ذلك.

وسئل ابن القاسم (المتوفى ١٩١ هـ / ٨٠٧ م) عن أحقية جيران أحد الأفراد أراد أن يبني حمامًا وفرنًا وطاحونًا فوق أرض فضاء، أن يمنعوه إقامتها، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك، كما سئل أيضًا عن حداد أراد أن يبني كورًا وفرنًا لصهر الذهب أو الفضة أو يبني طاحونًا، أو يحفر بئرًا أو مرحاضًا قرب حائط الجيران، فأفتى أن من حق جيرانه منعه لما يسببه لهم من ضرر.

وهذا كله يدل على أن اعتبارات الجوار شكلت عنصراً حاسماً في التراث العمراني بالمدينة الإسلامية.

١- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٠٤ : ١٠٧ القاهرة ١٩٦١، ابن الرامي، المرجع السابق ص ١٢٢ .



الفصل الرابع

الاستحكامات الحربية بالمدن الإسلامية

عند تأسيس أي مدينة جديدة اشترط علماء السياسة الشرعية تحصينها لحمايتها من الأعداء، ولذا وضع حكام المسلمين ضمن أولويات تأسيس أي مدينة تحصينها. ولم يقتصر الأمر على المدن المستحدثة، بل يمتد إلى المدن القديمة التي فتحها المسلمون، وتنوعت أنواع الاستحكامات الحربية بالمدن الإسلامية، ومنها:

- **الحصن**: هو أكبر عمائر الاستحكامات الحربية، وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض ليحميها ويحصنها ضد أي اعتداء من داخل البلاد أو خارجها، ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف في العصور الإسلامية الوسيطة باسم الحصون[١]، مثال ذلك أسوار بغداد والقيروان وفاس والمهدية وقرطبة والمدينة المنورة والقاهرة وصنعاء وزبيد والدرعية وغيرها كثير.

وتطور استخدام الحصون خلال العصور الإسلامية الوسيطة حتى بداية العصر الحديث تبعًا لتطور النظم العسكرية والسياسية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، إذ لم يعد الحصن معقلًا فحسب، بل أضحى المقر الطبيعي لإقامة الأمير أو الملك أو السلطان وأتباعه، كبغداد عند تأسيسها على يد أبي جعفر المنصور والقاهرة عند تأسيسها على يد جوهر الصقلي، وقد يضم الحصن المدينة بكاملها كما نرى في مدينة خيوة[٢] التي تضم حصنين: أحدهما داخلي، والآخر خارجي.

وظلت معظم حصون العصور الإسلامية الوسيطة تستخدم مقرات للأمراء والسلاطين حتى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كما حدث في القاهرة عندما نقل الخديوي اسماعيل مقر الحكم من قلعة صلاح الدين إلى قصر عابدين عام ١٨٧٤ م. وقد كانت القلعة جزءًا من حصن القاهرة.

١- د. سعاد ماهر محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، جـ٢، ص ٨١٩ .

٢- أمجد بوهيل بوخازكا، خوارزم عمارة الحضارة المدنية بين بحرى قزوين وآرال، ص ٢٤، ٢٥، ٢٦، إصدار منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ١٩٩١ م .

- **القلعـة**: القلعة استحكام حربى يبنى في منطقة استراتيجية كالجبل أو التل أو الروابى الصخرية أو على سواحل البحار، ومهمة هذه المباني مقصورة على المراقبة والدفاع ضد أي اعتداء خارجي، ومن ثم فهي بالضرورة لابد أن تتكون من مجموعة من الأبراج يربط بينها سور وتتوسطها ساحة تضم كافة المرافق التي تخدم القلعة، وتمتاز هذه العمارة بأن ساكنيها من الجند فقط، ولا مجال لإقامة المدنيين فيها.

ويشتمل الحصن على قلعة أو أكثر، ضمن مبانيه، كقلعة دمشق ضمن سور مدينتها، وقلعة الجبل أو صلاح الدين ضمن سور القاهرة الذي شيده صلاح الدين الأيوبى، أما قلعة بخارى فقد شيدت على هضبة مرتفعة داخل المدينة، والغرض من ذلك هو إعطاء ميزة للحاكم تتيح له مراقبة مركز المدينة، وهذه القلعة حددت مرات عديدة آخرها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وخربت مبانيها أثناء حوادث ١٩٢٠ م، ولم يبق منها الآن إلا ثلثها تقريبًا، وتوجد لها صورة فريدة من القرن الماضي صورها مصور مجهول، وهي محفوظة في موسكو في معهد الاستشراق.

- **البرج**: البرج عبارة عن بناء حربى مستطيل أو مستدير الشكل يبرز عن الجدار أو الأسوار، ويحتوي البرج على مساقط ومراقب ومزاغل لرمى السهام، ولذلك فإنه يتحتم أن تزود أسوار الحصون والقلاع بعدد مناسب من الأبراج ومن ثم فأحجامها يكون عادة صغيرةً لتعددها[١]. ويعتبر البرج ضمن القلعة أو سور الحصن أحد نقاط الهجوم على المحاصرين أو المهاجمين لكونه ذا مساحة تتيح تخزين سلاح أو ذخيرة، ويعطي حرية أكبر للجند الذين تحد الأسوار من حركتهم.

وقد يحدث أن تكتفي بعض القرى أو الثغور الصغيرة بإقامة برج للمراقبة

١- د. محمد أمين، وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، ص : ٢، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٠ م .

والدفاع المبدئي وفى هذه الحالة فإن البرج لابد أن يكون كبيرًا حتى يتسع لإقامة حامية كبيرة يمكنها صد هجمات الأعداء، أو على الأقل تعطيل تقدمهم حتى تستعد القلاع والحصون القريبة منها.

الاستحكامات المبكرة:

لم يحاول أحد من المؤرخين إلى الآن تتبع تاريخ الاستحكامات الحربية في القرون الأولى للهجرة، لسبب واضح هو أن الأكثرية العظمى لهذه الاستحكامات قد اندثر، وكانت النتيجة إهمال هذا الجانب الهام في تاريخ العمارة الإسلامية، وقد ركز معظم الباحثين على المدن التي أسسها المسلمون كمعسكرات لجيوشهم مثل الفسطاط والكوفة والبصرة وغيرها كثير.

وتركز المصادر التاريخية المبكرة على جهود المسلمين في تحصين بلاد الشام أمام خطر البيزنطيين في القرنين الأول والثاني الهجريين، ونستطيع أن نقول إن فن التحصين ازدهر على يد المسلمين، واستطاع الأب بوادبار عن طريق التصوير بالطائرات أن يكشف عن أساسات مطمورة لا يراها الإنسان وهو يمشي فوقها، وكشفت حفائر الرقة عن كثير من المعلومات المهمة في هذا المجال، ولا يزال البحث عن العمارة الحربية الأولى مهملًا إلى الآن، وأجريت في السنوات الأخيرة بعض الدراسات الجادة أسفرت عن نتائج توضح صورة لا بأس بها لهذه الاستحكامات، فعندما انتصر المسلمون على الروم في البر انتصارًا ساحقًا وحاسمًا قدروا خطر نزول العدو الرومي إلى السواحل الشامية تقديرًا سليمًا، واتخذوا لذلك إجراءات دفاعية كثيرة، منها بناء المناظر، ومنها تحصين المدن الساحلية إلى جانب الرباطات الدائمة للجند وجمع الساحل كله تحت إدارة عسكرية واحدة.

وأقدم الاستحكامات الحربية التي أقامها المسلمون على الساحل الشامى هي المناظر، ولفظ المناظر لفظ اصطلاحى حل محله اصطلاح جديد في

العصر المملوكي ورد في المصادر المملوكية وهو لفظ المرقب، ويبدو أن أهل الأندلس استعملوا اصطلاحًا ثالثًا وهو لفظ «الطلائع».

أما من حيث الوظيفة، فيدل سياق الروايات التاريخية الواردة خصوصًا عن البلاذرى على أن المناظر الحربية عبارة عن أبراج حراسة مبنية في الأماكن العالية المشرفة على البحر ابتغاء رؤية المراكب المعتدية قبل اقترابها من الساحل، والمناظر في الوقت نفسه وسيلة اتصال عن طريق إيقاد النيران بالمناظر الأخرى لتنبيه بقدوم العدو وحلول الخطر، وبسبب هذه الوظيفة نفترض أن النيران كانت توقد في أعلى الأبراج شأنها شأن المنارات بالنسبة إلى الملاحة البحرية قديمًا وحديثًا، وبنيت المناظر الإسلامية على طول الساحل الشامي بأمر صادر من الخليفة عمر بن الخطاب، ويحدد البلاذري عام ١٨ هـ تاريخًا لبنائها، ومن المربح أن المسلمين بنوا المناظر أيضًا على طول الساحل المصري لكثرة تعرضه لهجمات البيزنطيين من البحر على نحو ما حدث من هجمات على الإسكندرية ونستراوه.

واهتم المسلمون كذلك بالمدن الساحلية وكان تحصينها ضرورة استراتيجية تقتضيها الظروف السياسية والبشرية واستجاب المسلمون في هذه الظروف لتلك التحديات الحربية وتصرفوا على ثلاثة أوجه:

- الاحتفاظ بالحصون البيزنطية القائمة والاستفادة منها مثل تحصينات أنطاكية واللاذقية وطرابلس.

- إعادة بناء المتهدم من الحصون، وعلى هذا الأساس أعادوا بناء التحصينات في ثماني مدن وهي: طرطوس ومرقية وبانياس وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت.

- بناء حصون جديدة من أبرزها حصن سفيان الذي بُنِيَ بين عامي ٢٣ و ٢٥ هـ، واستمر الاهتمام بالاستحكامات في عصر بني أمية، خصوصًا

في بلاد الشام التي أصبحت قاعدة لحكمهم واستمرت السياسة نفسها في العصر العباسي. ومِمّا وَصَلَنا مِنْ هذا العصر: رباط المنستير وكان بناؤه على يد هرثمة بن أعين، وبقي من هذا العصر أيضًا قصر الأخيضر وهو يبعد خمسة وعشرين ميلًا غرب كربلاء، وهو عبارة عن سور مستطيل يحيط بالقصر ويتخلله ثمانية وأربعون برجًا، طول أضلاعه ٥٥٤ قدمًا، وارتفاعه ٦٩ قدمًا وسمك حائطه تسعة أقدام، وفي كل ركن من أركان الحصن الأربعة برج فيه درج، ويتوسط كل جدار من جدرانه الأربعة باب كبير، ويرجع بناء الأخيضر إلى ما بين عامي ٧٢٠ – ٨٠٠ م، وقد شيده عيسى بن موسى.

وخلال العصر العبيدي (الفاطمي) شيد العبيديون حصونًا عدة أبرزها مدينة المهدية ثم مدينة القاهرة، وجددت أسوار القاهرة على يد بدر الجمالي وبقي من أعمال بدر الجمالى بتلك الأسوار قطاعات كبيرة من السور الذي شيده بالحجر، كما بقيت ثلاثة أبواب لها قيمتها التاريخية والمعمارية وتعد من أجمل الأعمال التي أنجزت في تاريخ العمارة الحربية الإسلامية، وهي باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة المعروف عند العامة باسم (بوابة المتولي) وتم بناء تلك الأبواب والأسوار بين ٤٨٠ و٤٨٥ هـ.

وتتميز تلك الأبواب والأسوار بابتكارات معمارية غاية في الروعة، منها على سبيل المثال ذلك السلم الحلزوني الضخم الذي يوصل بين أرضية الحصن من الداخل وبين الكتلة البنائية التي تضم باب النصر، إذ يلتف ذلك السلم حول عمود ضخم شيد بالحجر متقن النحت والبناء كما تتجلى روعة حقيقية في بناء قبو نصف دائرى يعلو قلبات السلم الدائرية، ويصعد مائلًا معها، أي أنه يتقوس في اتجاهين مما يزيد من صعوبة التنفيذ والبناء، ويدل على براعة فائقة ودراية بالهندسة الوصفية، وهناك روائع معمارية أخرى تتمثل في قبول النفق في جوف السور فوق زاوية الانكسار عند تقابله مع مئذنة الحاكم، وهناك روائع معمارية أخرى تبرهن بغير ما شك

على دراية المسلمين بعلم الهندسة الوصفية الذي يعد من العلوم الصعبة في أيامنا هذه[1].

- **الحروب الصليبية وأثرها:**

عند تناول موضوع القلاع والحصون التي بنيت في العصور الإسلامية الوسيطة لا بد من البحث في الأحداث التاريخية التي رافقت هذه المباني ذات الطابع الحربى، إذ انطلقت أربعة جيوش من القوات الصليبية عام ١٠٩٦ م استجابة للنداء الذي أطلقه البابا أوربان في مجمع كليرمونت، وتم لهذه الجيوش احتلال عدد من المدن الإسلامية المهمة منها القدس، وبعد استيلائها على مدن الشام الساحلية أصبحت هذه القوات معرضة لخطر الهجمات التي كانت تقوم بها الجيوش الإسلامية لذلك تحتم عليها اتخاذ مواقع دفاعية وإنشاء حصون ليتمكنوا من الصمود أمام هجمات المسلمين بالإضافة إلى محاولاتهم عرقلة التجارة عبر الطريق البرى بين الشام ومصر، وكذلك عرقلة قوافل الحجاج، وهكذا قام بلدوين الأول خلال الأعوام ما بين ١١١٥ و ١١١٦ م، بإنشاء قلاع الشوبك (مونتريال) في معان، وايلة على جزيرة جراي في خليج العقبة، وقلعتي الوعيرة والحبيس في وادي موسى، ثم بنيت قلعة الكرك... عندها كان لابد للمسلمين من القيام بحركة مماثلة للرد على هذه السلسلة من الحصون والقلاع، فقام عز الدين أسامة أحد أمراء صلاح الدين الأيوبى ببناء قلعة الربض (عجلون)، وكان غرض السلطان من تشييد الربض حرمان الأمير أرنأط الصليبى من وضع يده على إقليم شرق الأردن الشمالي، وجعله تحت إشراف جند دمشق، وفى الوقت نفسه لاجتناب قلاقل بني عوف سكان الإقليم ضده، وكان عز الدين أسامة قد سجن مشايخهم في

١- د. فريد شافعي، العمارة الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ص ٧٥، ٧٦ .

الربض بعد انتهائه منها، وبنيت كذلك قلعة جزيرة فرعون[1].

وكانت هناك أربعة متطلبات أساسية لابد من وجود أحدها أو وجودها مجتمعه في أي بناء صليبي ذي طبيعة عسكرية وهي:

١- حصن منيع يسهل الدفاع عنه نظرًا لنقص القوى البشرية.
٢- أن يمتاز الحصن بموقع يمكن رؤيته من بقية الحصون لتسهيل عملية إيصال وتبادل الرسائل.
٣- أن يمتاز بجدران مرتفعة وسميكة لتصمد في وجه أي هجوم مباشر مع العلم بأن إمكانية القيام بإصلاحات دورية دائمة كانت غير واردة لنقص القوى البشرية كما ذكر سابقًا.
٤- توفر مساحة كبيرة نسبيًا داخل البناء خلف الأسوار يمكن اللجوء إليها من قبل الصليبيين القريبين من التحصين مع إمكان حمايتها أو الدفاع عنها.

لقد جاء الصليبيون إلى بلاد الشام حاملين معهم مفاهيم خاصة معينة بيزنطية ونورماندية وفرنسية فيما يتعلق بالعمارة الحربية، ومن ثم خرجوا متأثرين بما في هذه البلاد من مفاهيم حربية، ولعل أكثر العناصر التي تأثرت بها العمارة الحربية الأوربية، بعد الحروب الصليبية مباشرة، عنصر المدخل المنكسر أو الباشورة الذي رأيناه للمرة الأولى في تحصينات بغداد، ومازال يوجد له مثل قائم في أسوار صلاح الدين في القاهرة سجلته الحملة الفرنسية باسم الباب الجديد، وكان يوصل إلى الباب قنطرة متحركة فوق الخندق المحيط بالقاهرة وله نماذج عديدة بالمغرب الإسلامي.

ومن أروع أمثلته الباقية «الباشورة» التي زُوِّدَتْ بها قلعة حلب، وذلك

١- حنان الكردي، القلاع الأثرية في الأردن، ص ٢، دائرة الآثار العامة بالأردن، ١٩٧٤ م . لانكستر هارون، آثار الأردن، ص ٦٣، ١٢٩، ١٣٧، ترجمة سليمان موسى، وزارة السياحة والآثار الأردنية، ١٩٧٥ .

لما تمتاز به من كثرة عدد المنعطفات، إذ تبلغ نحو ستة منعطفات وهي كثرة تزيد من مناعة التعويق عن المرور من خلالها بسهولة من خلالها بما تجعل المهاجمين يتعرضون لضربات قاتلة بالسهام والحراب في أثناء مرورهم بتلك المنعطفات، فضلًا عن المنحدر القاسي الذي يتقدم المدخل والذي تحمله القناطر المشيدة فوق الخندق المحيط بالقلعة[1].

ومن هذه العناصر السقاطات وهي عبارة عن قوائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران كما يمكن أن يصب على رؤوسهم الزيت أو الماء المغلى أو غير ذلك من المواد المؤذية.

وتطورت الاستحكامات الحربية لتتناسب مع تطور الأسلحة المستخدمة بها وبصفة خاصة المدافع، ونرى هذا بوضوح في الاستحكامات الحربية العثمانية، وبرشيد العديد من هذه القلاع مثل قلاع العبد والننى والجزاير والشيخ.

وهذه الاستحكامات تبرز العبقرية الإسلامية في مواجهة ظروف الحروب ومحاولات الاعتداء على المدينة الإسلامية.

١- صبحي صواف، قلعة حلب، مديرية الآثار والمتاحف السورية، ١٩٦٧ م .



الفصل الخامس

المدينة الإسلامية
الحاضر والمستقبل

أثرت المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية على المدينة المعاصرة، وقد برز ذلك في العديد من المظاهر نجملها في الآتي:

- أصبح مبدأ التعمير هو الكمية والبذخ، بدلًا من النوعية، واستنزفت الحكومات الإسلامية في السنوات الأخيرة ثرواتها، في إقامة المنشآت الضخمة بسرعة جنونية فائقة، فعمت فوضى عمرانية لا تمت لبيئتها بصلة، سواء من حيث الموقع والمناخ أو من حيث ملاءمتها الوظيفية للظروف الاجتماعية والحضارية.

- شيوع الأنماط التخطيطية والمعمارية المستوردة من الغرب والتي لا تتفق مع قيمنا وتقاليدنا وبيئتنا، ولا تنسجم مع عامل الخصوصية، مما يؤدى إلى مشاكل اجتماعية خطيرة (الفتحات الزجاجية المتسعة بالعمارات السكنية التي يواجه بعضها البعض). ولقد ساعد على شيوع هذه الأنماط موجات المهندسين الذين نقلوا معارفهم أو ثقافاتهم المعمارية عن المفاهيم الغربية التي قدمتها الجامعات الأوروبية والأمريكية لهم، وهؤلاء المهندسون المدن يتحملون المسؤولية في تغيير معالم المدينة الإسلامية ومسح شخصيتها بحجة تطويرها مع مقتضيات العصر.

- عدم توفير المتطلبات الأساسية للقيم الإسلامية في مساكن الطبقات الشعبية.

- القصور في مشروعات الإسكان الحكومية: والتي تقوم في معظمها على إيواء مستويات معينة من أصحاب الدخول أو المهنيين، وينتج عنها تشكل مجتمعات غير متكاملة اجتماعيًا وإسكانيًا.

- خضوع المدينة المعاصرة لمقياس السيارة، فقد تزايدت معدلات حيازة السيارات الآلية دون معالجة الآثار المترتبة على ذلك، فالشارع يجب أن يكون مستقيمًا لتسهيل سرعة السيارة، وعريضًا لتنظيم مرور السيارات المتقابلة، والساحات يجب أن تكرس لوقوف السيارات، والبناء يخضع في

تكوينه لاستيعاب السيارة ومرأبها[1]. ولقد سيطرت شروط السيارة على العمران الحديث فأفقدته الكثير.

ولذا يتعين الأخذ بمبادئ فصل الحركة: كالفصل بين حركة المشاة وحركة السيارات وذلك كمحاولة للحد وتخفيف الآثار السلبية التي يولدها استعمال الآلة على خصائص ومميزات المدينة ولنا في المدن القديمة أفضل مثال فلقد فقدنا في الحاضر شعور الخصوصية في السكن والتي كانت تتمتع بها المدن الإسلامية، وتحولت الشوارع التي تتدرج في الاتساع ومساحات الظل والنور التي تعطى الإنسان نصيبه من الهدوء والأمان إلى شوارع عريضة فسيحة تكتظ بالسيارات رغم كبرها وتعاني مشاكل المرور للمركبات والبشر بآن واحد. وإن حل مثل هذه المشاكل لا يتم إلا عن طريق فصل حركة المشاة عن حركة السيارات ما أمكن.

– التفكك الاجتماعي في الأحياء القديمة: والذي يرجع إلى القصور في الخدمات البلدية، وإلى هجرة الطبقات الميسورة التي يحل محلها طبقات فقيرة نتيجة للهجرة العشوائية من الريف.وكما كان للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية أثر كبير على المدينة المعاصرة، كان للمتغيرات الثقافية انعكاس كبير على المدينة المعاصرة.

ففي عصور الازدهار الإسلامية، أثر التقدم الثقافي والعلمي الذي أحرزته الحضارة الإسلامية. في إيجاد بيئة عمرانية تحقق متطلبات الحياة الإسلامية، وعبرت البيئة العمرانية والفنون والزخارف المعمارية عن مدى الالتزام الاجتماعي بتعاليم الإسلام.

وفى العصر الحالي، أثر الغزو الحضاري، الذي تواجهه مختلف مجتمعاتنا، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، على كافة القيم والتقاليد

١– المرأب– جمعها مرئب. جمع مَرائِبُ: اسم مكان من رأَبَ : مكان إيواء السيَّارات، يقال: وضع سيارته في المرأب . وقيل: مكان تصلح فيه السيارات وغيرها من الآليات.

الإسلامية، واحتل عقول أبنائها وعلمائها ومفكريها، وانعكس هذا على مدننا ومساكننا، ومن أبرز مظاهر هذا الغزو:

١- نظم التعليم ووسائل الإعلام المنقولة والمتأثرة بالغرب تأثيرًا مباشرًا.
٢- تشريعات وقوانين التخطيط العمراني والمباني المستمدة من النظم الأوروبية.
٣- التكنولوجيا المستوردة من الغرب.

كما لا توجد أي معايير تخطيطية ومعمارية حاكمة ولا حدود مرسومة للاحتياجات المناسبة لمجرى حضارتنا الإسلامية وتطورها الطبيعي في مدننا ومساكننا في ظل ظروفنا الحالية.

ودراسة مدننا المعاصرة أمر هام لابد أن تضع ضرورة ربط المكونات المادية والمعنوية للمدينة ضمن أولويات معالجة أمراض المدن المعاصرة، فلا يخفى علينا أن هناك ترابطاً واضحاً بين المكونات المادية للمدينة وبين مقوماتها المعنوية. فالأولى مرآة الثانية في أغلب الأحيان، إذْ النتاج المادي نتاج فكر المجتمع وإبداع الإنسان، ولا يمكن أن يكون أصيلًا إلا إذا كان كذلك.

ولكن المهم هو أننا كثيرًا ما نظرنا إلى كل من هذه المكونات المادية والمقومات المعنوية على حدة. وقام المتخصصون بدراسة تطورها في انغلاق فكري ونظرية أحادية، ولم ينظر إلى هذا التداخل والتفاعل إلا فيما ندر.

ويهمنا أن نعترف أننا نقف اليوم عند ملتقى الماضي بالمستقبل، ومن هذا المركز الحيوي، أمامنا مهمة شاقة وهامة، ألا وهي أن نربط بين الماضي والحاضر على مستوى مختلف هذه المكونات والمقومات حتى لا نأتي بما يحدث انفصامًا فكريًا وخللًا حضاريًا، وبالتالي وجب علينا أن نتخذ هذه النظرة الشمولية التي تحدثنا عنها، والتي تربط بين المهندس والاجتماعي والقاضي والفقيه والاقتصادي وغيرهم، كل يُعْطِي عطاءه في سبيل الهدف المشترك.

إن هذه النظرة الشمولية للمدينة الإسلامية وتراثها الحضاري الإسلامي هي الوحيدة الكفيلة بتحقيق الرؤية الشاملة للمجتمع ومدنه، تلك الرؤية التي تتطلبها جسامة المسؤولية الملقاة على عاتق المفكرين والمخططين والمهندسين المسلمين في هذا المنعطف التاريخي الحاسم الذي يجابه أمتنا[1].

ومع إثارة ضرورة هذا الترابط كخيار ضروري للمدن الإسلامية تبرز قضية مهمة على الساحة لابد من مناقشتها مناقشة جادة وبناءه حتى تكون الرؤية واضحة أمام الجميع، ويتعلق الأمر بقضية الثوابت والمتغيرات.

ومن المفيد الإشارة إلى أنه من الخطورة بمكان أن يظل الخاصة من المسلمين في هذا المجال يتباحثون في المثاليات والمتوارثات الحضارية بينما يظل العامة منهم ينغمسون أكثر وأكثر في معطيات المدينة الغربية مما يزيد الهوة اتساعًا ويحصر هذه المثاليات في النطاق العلمي (الأكاديمي) النظري.

هل من الصحيح أن نرى المستقبل بعين الماضي أو أن نرى الماضي بعين المستقبل؟

ليس صحيحًا على أية حال أن نعظم أو نضفى صفات العصمة على الماضي في هذا المجال في طريقنا للبحث عن النموذج، آخذين في الاعتبار المتغيرات والثوابت في البلاد الإسلامية المختلفة. فليس صحيحًا أن نعود إلى ما بناه الأوائل ونطبقه تمامًا لأنه ليس تشريعًا ولأنه كان وسيلة لتحقيق الهدف بإمكانات وعوامل معينة تغيرت الآن تمامًا... ومع ثبوت الأهداف، علينا أن نجتهد كما اجتهد الذين من قبلنا.. ولا يضيرنا في هذا أن ننقل بعضًا مما توصلوا إليه أو نترك البعض كما أنه ليس صحيحًا أن ندير ظهرنا للتراث المعماري بكامله ونجنح إلى المستورد من بيئات غريبة عنا ولدت نظرياتها ومعاييرها في أجواء وتحت ظروف مغايرة تمامًا لواقعنا، لقد

١- د. إسماعيل سراج الدين، المدينة العربية وتراثها الحضاري، ص ٢٣ .

استورد الإنسان المسلم فتات التكنولوجيا من الغرب.. أخذ ببعضها وتغافل عن البعض الآخر وارتبطت حباله الاقتصادية باقتصادياته كما ارتبطت خيوطه حتى كاد أن يفقد مقوماته الحضارية في خضم هذا البحر الهائج، فإذا حاول حل مشكلة لجأ إلى الغرب، وإذا حاول حل مشاكلها الجانبية لجأ إلى نفس المصدر حتى أصبح تبعا، فضعفت الأمة وزادت الغمة، وفقد الإنسان المسلم بذلك مقوماته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولم يعد أمامه سبيل إلا العودة إلى الحق والوسطية في بناء الذات الإسلامية علميًا وثقافيًا وحضاريًا والوسطية والتعامل بمبدأ لا ضرر ولا ضرار.

لقد ولدت العمارة الإسلامية وتطورت من خلال التجربة والخطأ في عهود الأسلاف حتى اكتمل لها المعيار والفكرة والحلول الكفيلة بالقناعة الوظيفية والجمالية والتي تتناسب مع المعطيات البيئية.

إن السيارة والطائرة والقاطرة ووسائل الاتصالات الحديثة والأعداد الكبيرة من السكان وخدمات البنية الأساسية (Infrastructures) كلها جديدة ومعقدة، ويجب أن ندخلها في الاعتبار ونواجه المشاكل بشكل جذري وصريح، حيث إن محاولة الخروج من هذا المأزق بتقليد أبنية إسلامية الخصائص لا حديثة التقنية.

وأخطر من ذلك الاتجاه السائد والذي يمكن تسميته بعمارة الواجهات كحل سريع ولكنه مزيف، وأغلبها محاولات تبحث عن الشكل وليس المضمون في صور سطحية باستخدام العقود أو القباب أو المشربيات، والتي لا تؤدى في أغلبها إلا دورًا إجماليًا لا وظيفيًا تحت زعم إضفاء الطابع (الإسلامي)، ويمثل هذا الاتجاه رؤية سطحية للعمارة الإسلامية دون تطبيق مضمونها على الفراغات الداخلية للمنشآت.

وقد ساعدت وسائل الإعلام على إبراز النهضة بأبنية وشوارع النمط الغربي فهجر الناس ماضيهم الذي هو في مفهومهم رمز للتأخر، وجنحوا

إلى النمط الغريب الذي صور لهم على أنه رمز للمدينة والتحضر. ووقفوا ينظرون بإعجاب إلى الأيدي المستوردة وهي تبني وتشيد أبنية فاقدة الهوية.. ولسنا ندعو إلى اعتبار المدينة الإسلامية فرعًا من فروع الآثار التي يلجأ إليها السائح وإنما إلى إعطائها الفرصة لكي تساهم بإيجابية في تقديم الحلول التطبيقية في المجالات العمرانية والمدنية[1].

إن من وسائل هذا الغزو البارزة، إحياء الحضارات القديمة في بلاد المسلمين كالفرعونية في مصر، والآشورية بالعراق، والفينيقية بالشام، والحميرية باليمن، لكي يجد الإنسان نفسه حائرًا إلى أي شيء ينتمي إلى الإسلام أم إلى تلك الحضارات التي مجدها المستغربون؟.

وَصاحَبَ الاهتمامَ بهذه الحضارات اهتمامٌ بِعِلْم آخر عرف بالآثار الإسلامية سجلت من خلاله شواهد حضارية منها ما يخالف العقيدة الإسلامية، ومنها ما يتفق مع ديننا الحنيف ولكننا فشلنا في توظيفه لصياغة شخصية الطفل والشاب والرجل المسلم، فنجد في إيطاليا مثلاً الطفل يربى تربية مَتْحَفِيّةً تجعله ينتمي للرومان أجداده من خلال زياراته المتكررة للمعابد والمتاحف الرومانية، بل أكثر من ذلك جعلت هذه التربية غير المباشرة الإيطاليين يتمنون عودة الدولة الرومانية وروما لعصرها الذهبي.

يرى الكثيرون من رجال وشباب الصحوة الإسلامية أنه لا توجد فائدة مرجوة من الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي والمتاحف الإسلامية، ونسوا أنه يمكن أن نستفيد منها في صياغة عقل الطفل المسلم ووجدانه بل الأجيال المسلمة، كما يفعل الغرب، فمن المؤكد أن زيارة الأطفال والشباب لمنازل رشيد أو جدة أو فاس مثلاً ستحدث أثراً طيبا في عقولهم ونفوسهم لما تبرزه تخطيطاتها وعناصرها مدى احترام الأسلاف لخصوصية المنزل،

١- حسن الششتاوي حسن، المدينة العربية بين الدعوات الثلاث: السلفية والمعاصرة والتحفظة، ص٢٦.

والتي صيغت وفقًا لتعاليم الدين الإسلامي، واحترامهم لحقوق الجار، كما أن زيارتهم لقلعة حربية كقلعة حلب توضح مدى الجهد الذي بذله الأجداد في الذبّ عن ديار الإسلام. كما أن زيارتهم لمارستان (مستشفى إسلامي) كالمارستان النوري بدمشق أو القلاووني بالقاهرة مصحوبة بشرح عن دور الأطباء المسلمين بهما والخدمات التي يقدمها كلاهما للمرضى.وقس على ذلك زيارتهم للوكالات التجارية كوكالة الغوري بالقاهرة،مع بيان كيف أنها كانت بورصات عالمية تعقد بها الصفقات !، وزيارتهم للربع وتوضيح أنها كانت مجمعات سكنية لفقراء المسلمين وأنه كان أسفلها سوق تجارى كبير، يبين لهم أن فكرة المجمعات السكنية التجارية التي يسكنها الأغنياء اليوم، فكرة إسلامية اقتبسها المعمار الغربي من المسلمين، وزيارتهم للمدارس الإسلامية كالمدرسة المستنصرية ببغداد والجامع الأموي بدمشق، ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة، وإدراكهم كيف أن الجامعات فكرة نقلت عن الحضارة الإسلامية إلى الغرب، فقد كانت كل مدرسة تضم مناهج لتدريس الفلك والطب والحساب والعلوم الدينية.

أليس هذا كله داعيًا لأن نهتم بالتربية المتحفية لأطفالنا وشبابنا والتي تعمق لديهم الانتماء لدينهم؟

إن التراث المعماري الإسلامي ما هو إلا تعبير ذاتي عن الحضارة الإسلامية، وهو يمثل خلاصة تجارب السابقين ومدرسة لتعليم مهندسي المستقبل، ومع أن الاتجاه نحو المعاصرة أمر ضروري ولا شك، لكن هذا لا يتم عن طريق الاستيراد الأعمى للطرق والوسائل أو عن طريق التقليد، بل يتم عن طريق فهم جوهر المعاصرة، والمعاصرة هي الاعتماد على البحث العلمي والتخطيط وليست في التقليد واتباع الغير، فالحضارة ليست زيًا بل هي مقياس رقي الإنسان في أي أمة من الأمم.

والمدينة القديمة ليست مظهرًا من مظاهر التخلف يدفعنا إلى إهماله

ومناهضته بل هي الصيغة المركبة من حصيلة التفاعل بين الإنسان ودينه وبيئته، والمعاصرة لا تعني الانفصال عن التراث والماضي، بل تعني تطوير هذا التراث المعماري مع الواقع.

وأكثر ما يعتمد عليه تخطيط المدينة الحديثة، الوعي بأهمية الخصائص التاريخية للعمارة الإسلامية، ومن المؤسف أن هذه الناحية لم تصل بسهولة إلى اقناع المسؤولين.

- خطوات على طريق إعادة نموذج المدينة الإسلامية:

بُذِلَتْ جهودٌ كبيرة خلال السنوات السابقة لتأصيل القيم الإسلامية في المدينة المعاصرة، وذلك من قبل مؤسسات أسست لهذا الغرض ونخص من هذه المؤسسات:

- منظمة المدن العربية:

وسط المتغيرات التي تمر بها المدينة العربية المعاصرة، رأى بعض الرواد من قيادات المدن العربية ضرورة إنشاء منظمة تسعى لتأكيد التعاون وتقوية الروابط وإنماء المدن العربية.

وفي عام ١٩٦٧م وعلى أثر اجتماع تأسيسي عُقِدَ في الكويت شارك فيه مندوبون عن سبع وعشرين مدينة عربية، وبعد دراسة مستفيضة منطلقة من فهم عميق لواقع الوطن العربي وتطلعاته وآماله قامت «منظمة المدن العربية» وروعي أن تكون منظمة مدن تفتح ذراعيها لكل المدن العربية التي تتساوى جميعًا في الحقوق والواجبات بغض النظر عن عدد السكان أو القطر الذي تنتمي إليه أو أي اعتبارات أخرى.

وأقبلت المدن على الانضمام إلى المنظمة سنة بعد أخرى حتى وصل عددها إلى «٢٣٠ مدينة».... وخلال الخمسة والعشرين سنة الماضية هي عمر المنظمة كانت واضحة في خطها الاستقلالي وتمسكها بمبدأ البعد عن

المشاكل والخلافات السياسية. مما جعلها محل ثقة البلديات والمواطنين..

وكانت أهدافها واضحة لرفع مستوى الخدمات والمرافق البلدية في المدن العربية وتطويرها بما يواجه النمو السكاني.

ثم لاحظ المسؤولون في المدن والحكومات العربية أن المدينة الإسلامية في نموها السريع فقدت الكثير من طابعها وتراثها الأصيل، ولم تأخذ في معظم الأحيان بعين الاعتبار احتياجات البيئة والعادات والتقاليد والواقع الاقتصادي والاجتماعي، ورأوا ضرورة النص على ذلك في النظام الأساسي للمنظمة الذي جرى تعديله باقتراح الأمانة العامة، وأُخِذَ رأيُ المدن الأعضاء تفهمًا لسير الأحداث ومتطلبات العصر وتطلعات المستقبل وإدراكًا لأهمية الاستجابة لحركة التطور والسعي الجاد لتحقيق الأهداف على نحو أفضل.

عقدت المنظمة عددًا من المؤتمرات العامة بحثت فيها العديد من الموضوعات الهامة، وكانت مجالات خصبة لتبادل المعرفة والخبرات واستعراض البحوث والدراسات، والوصول إلى قرارات وتوصيات في خدمة المدن العربية وإنمائها.. وفى عام ١٩٧١م عقدت المنظمة أول ندوة لمديري البلديات وتوالت بعد ذلك بمعدل ندوة أو ندوتين سنويًا خصصت كل منها لدراسة مشكلة من المشاكل التي تواجه المدن العربية.

وفي حرص المنظمة على أن تصل خدماتها الفعلية إلى المدن الأعضاء ونظرًا لما استبان من ناتج الدراسات التي أجرتها الأمانة العامة للمنظمة مِنْ أنَّ ضَعْفَ الموارد المالية يقف حجر عثرة في طريق تنفيذ الكثير من المشاريع الهامة للمدن، تبلورت فكرة إنشاء «صندوق تنمية المدن العربي» الذي شرع فعلًا بتقديم خدماته في مساعدة المدن الأعضاء وتقديم القروض لها فقدم أكثر من ثلاثين قرضًا ماليًا للمدن الصغيرة المحتاجة.

ثم كان سعيُ المنظمة لإنشاء جهازها المتخصص ليحمل عبء الجوانب

الفنية والعلمية في مجالات خدمات المدن ورفع مستوى أداء العاملين بها وتحديث طرق العمل وأساليب الإدارة والتنظيم وإجراء البحوث والدراسات وتقديم الاستشارات فيما تطلبه المدن..

- المعهد العربي لإنماء المدن:

المعهد مؤسسة علمية ثقافية استشارية تهتم بالمدينة في كافة مجالاتها واختصاصاتها وأغراضها، والمدن العربية والشؤون البلدية بصفة خاصة. وهو الجهاز المتخصص لمنظمة المدن العربية في مجالات التدريب والأبحاث والاستشارات والتوثيق وكل ما من شأنه دعم المنظمة والعمل على تحقيق أهدافها في رفع مستوى المدينة العربية وتطويرها مع الحفاظ على هويتها الإسلامية وتراثها الحضاري.

وللمعهد شخصيته المعنوية وذمته المالية المستقلة ومقره مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ويباشر مهامه بالتعاون والتنسيق مع المنظمة ويشرف على المعهد ويرسم سياسته ويضع خططه «مجلس أمنائه» الذي اختارته المدن العربية ويضم عضوية كل من: أمين مدينة الرياض نائبًا للرئيس وأمناء ورؤساء مدن: جدة وبغداد ودمشق وطرابلس وتونس والرباط، وكانت أمانة المعهد في سنواته الأولى تحت رئاسة وزير الشئون البلدية والقروية بالمملكة العربية السعودية، والأعضاء السابقون مختارون من أعضاء المكتب الدائم للمنظمة، وأمين عام المنظمة ومدير عام المنظمة ومدير عام المعهد «أمينًا عامًا للمجلس».

- أغراض المعهد وأهدافه:

يمكن أن نشير، في إيجاز، إلى الأهداف الأساسية للمعهد وهي: التدريب و البحوث والاستشارات والتوثيق على المستوى الإقليمي للمدن العربية مع التركيز على المتطلبات الإنمائية لهذه المدن، ويشمل ذلك ما يلي:

١- التدريب: وضع برامج التدريب الشامل في مجالات الخدمات البلدية وتخطيط المدن وتصميم الأعمال الهندسية والأمور ذات العلاقة بتطوير المدينة، وذلك بهدف تخفيض العجز الكبير في الاختصاصين ومساعديهم ورفع مستوى الأداء في قطاعات العمل المختلفة بالمدن العربية.

٢- البحوث والدراسات: إنجاز البحوث والدراسات في مجالات اهتمامات المعهد مع الجهات والمعاهد المتخصصة لتطوير المعطيات الأساسية المتوافرة للمنطقة ودعم البرامج والمساهمة في مشاريع التنمية إثراء المعرفة والمعلومات.

٣- الاستشارات: تأمين الخدمات الاستشارية للمدن.

٤- التوثيق: تم إنشاء مركز متخصص لجمع المعلومات والوثائق والمطبوعات لتغطية كل ما يتعلق باهتمامات المعهد وتطوير الأنظمة والوسائل لتوفير هذه المعلومات ونشرها.

- **جائزة منظمة المدن العربية:**

تقديرًا لما يزخر به التراث المعماري الإسلامي، وسعيًا للحفاظ على الطابع المميز للمدينة العربية، وتشجيعًا لروح الإبداع لدى المعماريين العرب، تمنح منظمة المدن العربية جائزة كل عامين، تتألف من الجوائز الآتية:

أ- جائزة المشروع المعماري: قدرها ٥٠٠٠ دينار كويتي ودرع ذهبي وشهادة تقديرية، وتمنح لأحسن مشروع معماري نفذ في مدينة عربية، ويمثل مرفقًا عامًا.

ب- جائزة التراث المعماري: درع ذهبي وشهادة تقديرية وتمنح لمدينة عربية تقوم فيها المراجع المتخصصة بالحفاظ على جزء تاريخي مهم من المدينة وإحيائه.

ج- جائزة المهندس المعماري: قدرها ٤٠٠٠ دينار كويتي ودرع ذهبي وشهادة تقديرية، وتمنح لمهندس عربي تقديرًا لجملة الأعمال التي قام بها،

والتي تؤكد ارتباطه بالعمارة العربية الإسلامية.

ومقر هذه الجائزة بلدية الدوحة بدولة قطر، وقد بدأت دورتها الأولى منذ (١٩٨٤ / ١٩٨٦ م).

وتصدر المنظمة مجلة «المدينة الإسلامية» ولكن انتشارها وتوزيعها محدود.

- منظمة العواصم والمدن الإسلامية:

تأسست المنظمة في ١٤ جمادى الثاني عام ١٣٩٩هـ / ١٢ مايو ١٩٧٩م إثر صدور القرار ٢٥ / ١٠ لمؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بفاس والخاص بإقرار النظام الأساسي للمنظمة.

ثم أعلن عن قيام الأمانة العامة للمنظمة بمقتضى القرار رقم ١/٣ الصادر عن المؤتمر العام الأول لأمناء العواصم الإسلامية المنعقد بمكة المكرمة في الفترة ما بين ١١ – ١٢ ربيع الأول عام ١٤٠٠ هـ الموافقة للفترة ما بين ٢٩ – ٣٠ يناير ١٩٨٠ م.

ويتبع المنظمة صندوق لحماية التراث في العالم الإسلامي.

- أهداف المنظمة:

١- توثيق عرى المودة والإخاء والصداقة بين العواصم والمدن الإسلامية.

٢- تنشيط وتطوير التعاون بين العواصم والمدن الإسلامية وتوسيع نطاقه.

٣- الحفاظ على هوية العواصم والمدن الإسلامية وتراثها.

٤- العمل على تحقيق مخططات عمرانية شاملة لتوجيه نمو العواصم والمدن الإسلامية.

٥- العمل على تحقيق مخططات عمرانية شاملة لتوجيه نمو العواصم والمدن والأعضاء بالمنظمة.

- **وسائل تحقيق الأهداف:**

١- تبادل الزيارات والبحوث والدراسات والخبرات والبعثات بين العواصم والمدن الإسلامية.

٢- عقد الندوات لبحث الموضوعات التي تعنى بها العواصم والمدن الإسلامية واقتراح الحلول لها، ومن أبرز الندوات التي عقدتها المنظمة، ندوة الإسكان في المدينة الإسلامية والتي عقدت في أنقرة سنة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

وقد شرعت المنظمة في إصدار موسوعة لعمارة المسلمين، بهدف تعريف المعماري المسلم بالمقومات الحضارية لعمارته سواء من ناحية المضمون أو الشكل وذلك في إطار معرفة واضحة بالقيم الإسلامية والتعاليم الشرعية كأساس للتقويم المعماري والتخطيطى، ويتضمن الجزء الذي صدر من هذه الموسوعة دراسة تحليلة لمعرفة أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضرى في العصور الإسلامية المختلفة التي مرت بها مدينة القاهرة، وذلك من خلال نماذج مختارة للنوعيات المختلفة من المباني ومن المواقع التاريخية في كل عصر من العصور الإسلامية بالقاهرة التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، وذلك من أجل استنباط الأسس التصميمية المعمارية والمبادئ التي تنبعث من القيم الإسلامية من ناحية ومن التأثيرات البيئية والنمط المعيشى للإنسان المسلم من ناحية أخرى.

فعلى الرغم من تعدد العصور الإسلامية واختلافها وتعدد الجوانب الحضارية التي تأثرت بها إلا أننا نجد أنفسنا أمام عمران متكامل يعبر بإخلاص عن مجتمع إسلامي وعن الشخصية المعمارية والتخطيطية المحلية، وإذا كانت العمارة المعاصرة قد تعرضت للعديد من المؤثرات الخارجية الأمر الذي أفقدها شخصيتها وذاتها، فإن تأصيل القيم الحضارية في بناء العمارة المعاصرة لابد وأن يبنى على أساس تفهم

المعماري المسلم وممارسته للتصميم والتخطيط وطرق التعبير التي كانت سائدة في عمارة العصور الإسلامية، فإذا ما استوعب المعماري المسلم أسس التصميم المعماري إلى الأسس المعاصرة، فإن ذلك سوف ينتج عمرانًا يمثل المجتمعات الإسلامية المعاصرة متأثرًا بها نابعًا من عمارة العصور الإسلامية. وإذا كان المعماري الذي يعمل في المجتمعات الإسلامية المعاصرة لم يدرس بشكل كاف عمارة السلف وتخطيطهم، فإن مطالبته بإنتاج عمارة أو تخطيط نابعين من بيئته ومجتمعاته الإسلامية يمثل حملًا ثقيلًا عليه ففاقد الشيء لا يعطيه، الأمر الذي حذا بمنظمة العواصم والمدن الإسلامية إلى أن تعمل من أجل إيجاد مراجع وافية توضح أسس التصميم المعماري ومبادئ التخطيط العمارنى للمجتمعات الإسلامية في مختلف العصور حتى يفيد منها الدارسون والباحثون، كما يفيد منها طلبة العمارة وأساتذتها والمسؤولون في المدن الإسلامية.

- **مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة والإسلامية (أرسيكا):**

بدأت فكرة إنشاء مركز للأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (أرسيكا) أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي السابع لوزراء الخارجية في استانبول عام ١٩٧٦ م، ولاشك أن ما شاهده الوزراء في عاصمة الدولة العثمانية من ثراء مكتباتها بما حوته من مخطوطات عربية نادرة وتركية وفارسية وغيرها في شتى فروع العلم والمعرفة، وما جمعته متاحفها من نفائس الفنون الإسلامية، وما أقيم على أرضها من روائع الآثار المعمارية هي بعض أمور كانت الحافز وراء تشجيع فكرة إنشاء مركز يتبع منظمة المؤتمر الإسلامي ويكون مقره استانبول (إسلام بول) تكون مهمته إجراء البحوث في دعم التقارب بين شعوب العالم الإسلامي وتوطيد عرى الصداقة بينها بصورة فعالة.

وقد بدأ المركز نشاطه في عام ١٩٨١ م، فأنشأ قاعدة دولية عريضة من التعاون وإبـرام الاتفاقيات مع العديد من المؤسسات والمنظمات الدولية الأخرى ذات الاهتمام المشترك،وأصدر الأبحاث والدراسات المتخصصة ومن أبرزها الترجمة العربية لموسوعة فنون الترك وعمائرهم للأستاذ أوقطاى أصلان أبا والتي ترجمها الأستاذ أحمد عيسى، وهو بصدد طبع كتاب عن العمارة الإسلامية في ألبانيا.

وللمركز نشرة إخبارية دورية تهتم بالتعريف بأحدث الأبحاث المنجزة، كما أنجـز شرائط الفيديو الوثائقية وأقـام المعارض المختلفة في الدول الأعضاء وخارجها.

وشارك في المعارض الدولية، ونظم العديد من الندوات والمحاضرات القيمة بمقره وبالدول الأعضاء، وأحدث نظامًا للمنح الدراسية، وأنشأ مكتبة متخصصة تضم الكتب القيمة، والتي أصبحت أحد أهم مراجع الدراسات في مجال الحضارة الإسلامية نظرًا لما تحويه من مجلدات ضخمة متعددة اللغات و«ألبومات» و«أطالس» وخرائط وميكروفيلم.

وبهذا فقد استطاع المركز أن يكون مؤسسة دولية لها موقعها الاستراتيجي الهام على خارطة البحث والدراسات في العالم.

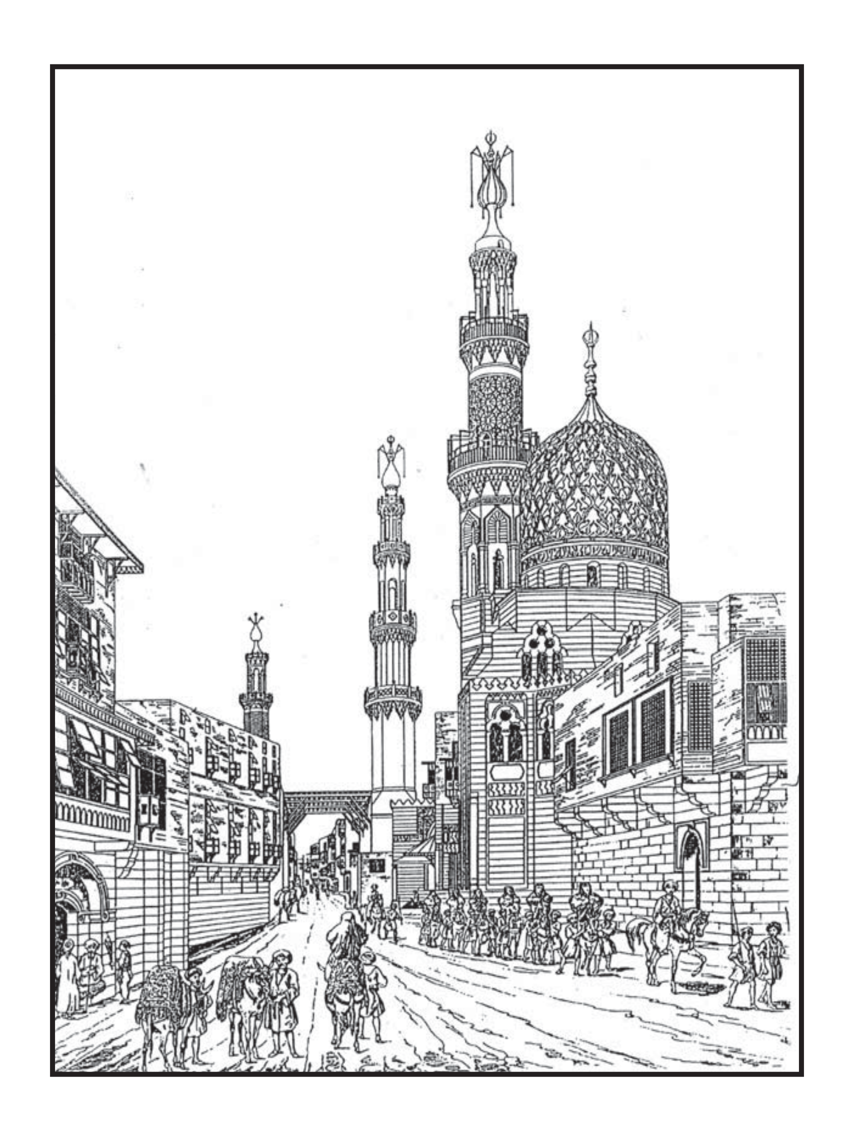
تلك كانت بعض الخطوات على طريق عـودة المدينة الإسلامية إلـى أصالتها، وهي تعتبر علامة حضارية على طريق تأصيل القيم الأصيلة في ميدان العمارة، وياحبذا لو قامت منظمة المدن العربية بنشر مجلتها على أوسع نطاق وذلك ببيعها للجمهور بسعر زهيد حتى يتسنى له التعرف على المقومات الحضارية للمدينة الإسلامية، وعلى الحلول المتداولة لحل مشاكل المدن المعاصرة بطريقة صحيحة، وأن تستمر جهودها من أجل نشر سلسلة عن المـدن العربية، وفي نفس الوقت تواصل فيه منظمة العواصم والمدن الإسلامية إصدار موسوعتها، وتبني خطط للحفاظ على التراث المعماري

الإسلامي، وأن يصدر مركز الأبحاث باستانبول مجلة متخصصة للتراث الإسلامي بدلًا من تعرض الباحثين لعقبات شتى لنشر أبحاثهم.

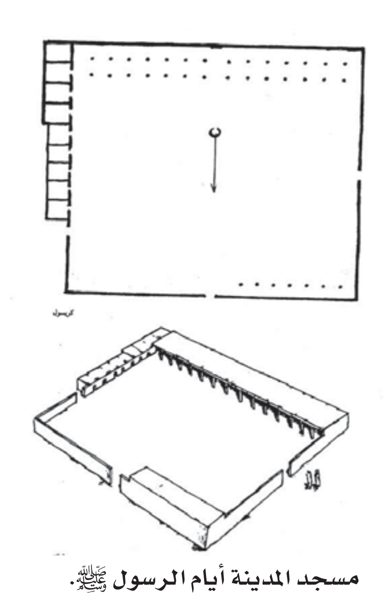
إن أي طريق للعودة الصحيحة يبدأ بخطوة؛ وتلك الخطوات اتخذت ومازال أمامنا الكثير والكثير... لأن ما أنجز قليل، والأمل مازال معقودًا.. وهو يبدأ ببناء الإنسان المسلم وينتهي بالمجتمع المسلم.

والله الموفق،،،


ملحق
الصور والأشكال

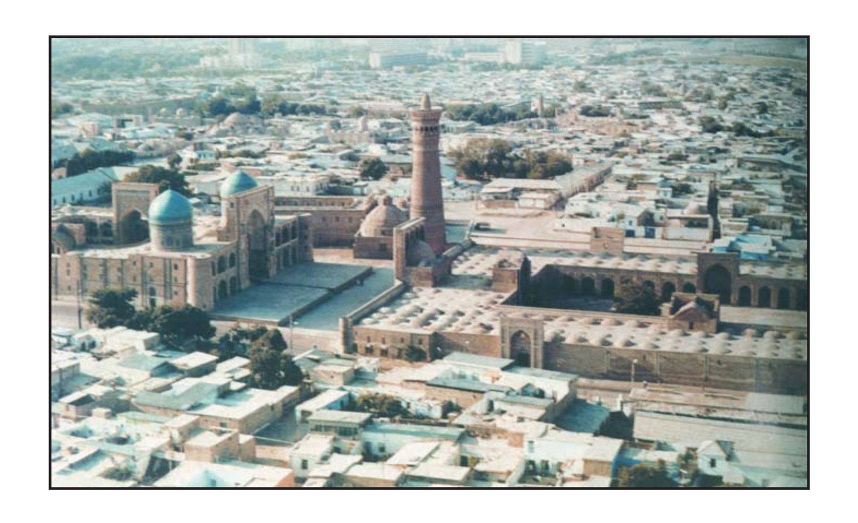


المدينة الإسلامية: المنازل، المسجد، الطرق.



مسجد المدينة أيام الرسول ﷺ.

مسجد المدينة أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه.



منظر عام لمدينة القدس في القرن ١٩ .



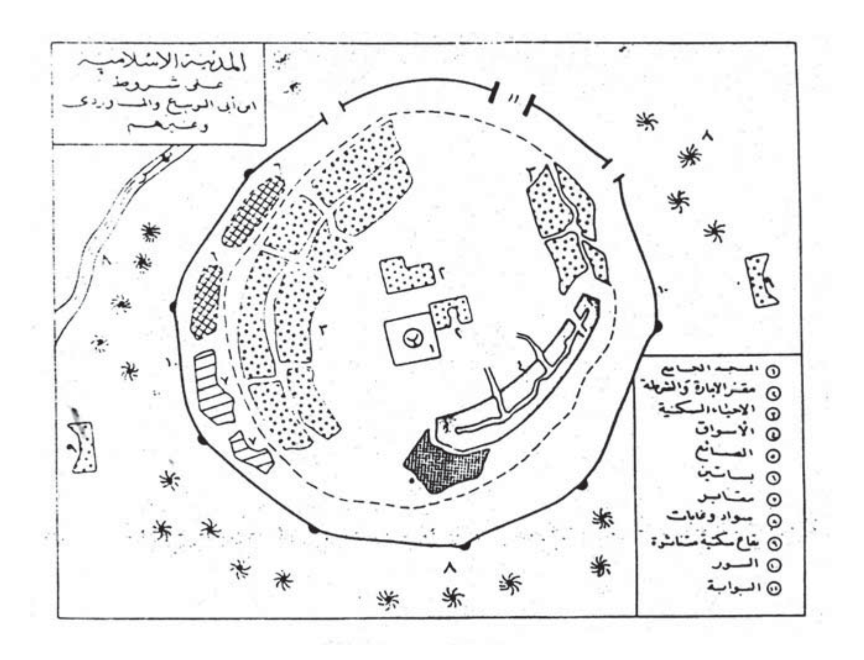
منظر عام لمدينة بخارى .



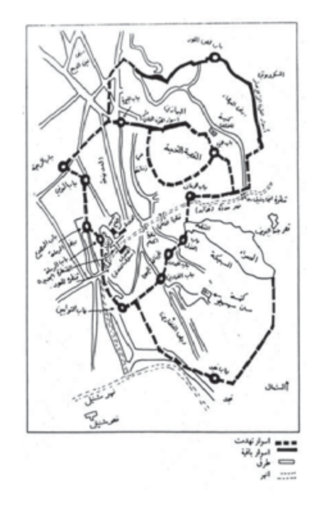
منظر عام من مدينة صنعاء .



ساحة راجستان في مدينة سمرقند .



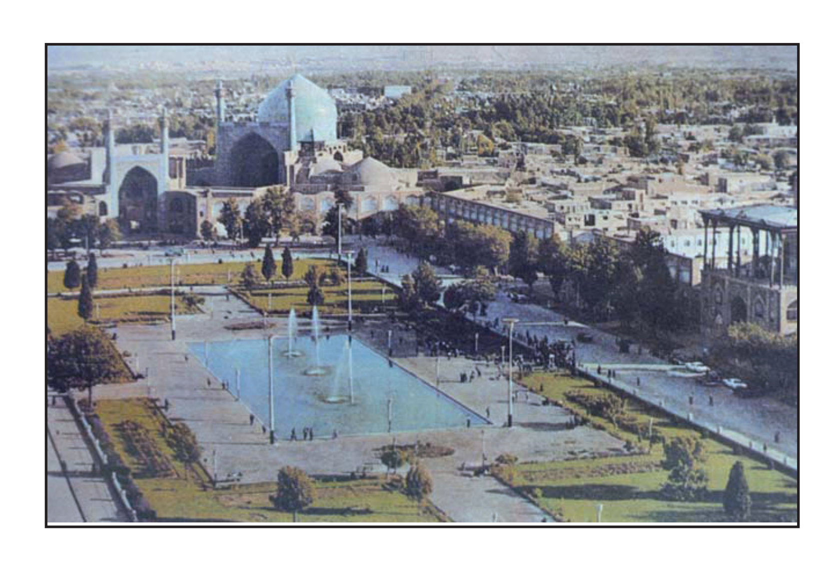
المدينة الإسلامية على شريط ابن أبي الربيع والماوردي وغيرهما.



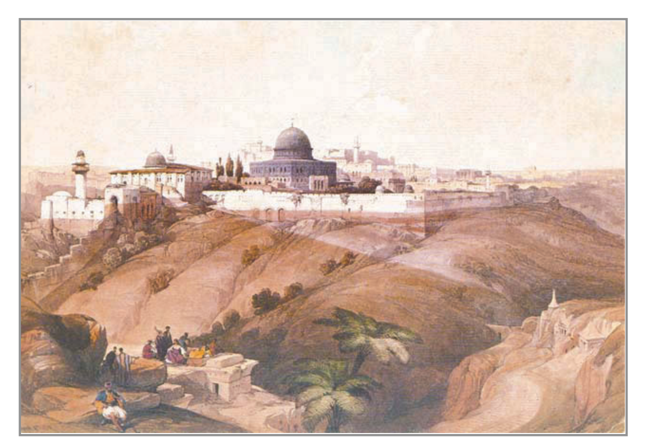
مدينة غرناطة كما كانت ايام بني الأحمر.



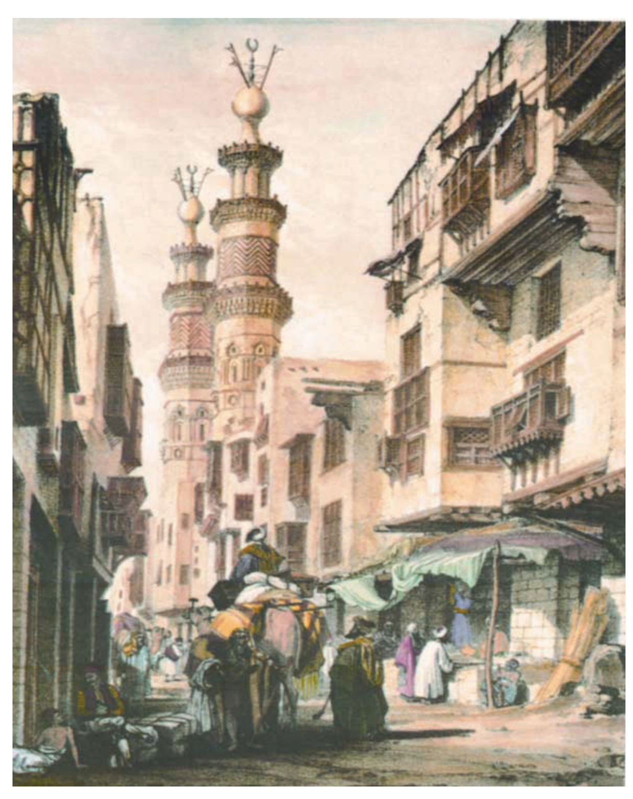
خطط بخارى.



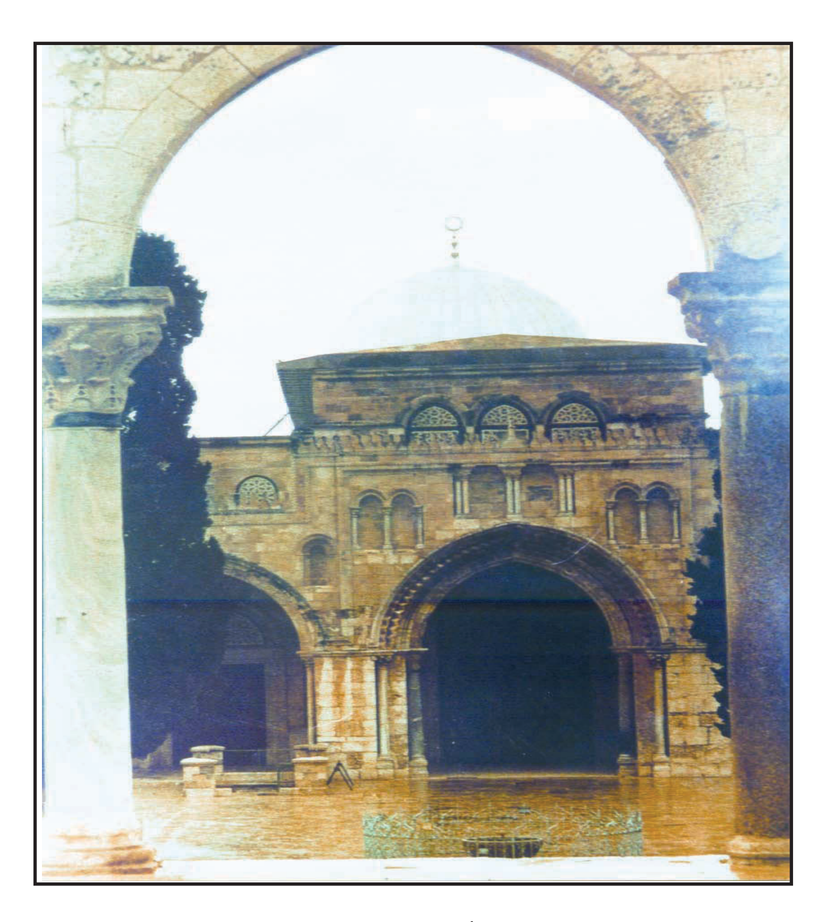
ميدان الشاه عباس بمدينة أصهفان - عن دكتور فريد شافعي.



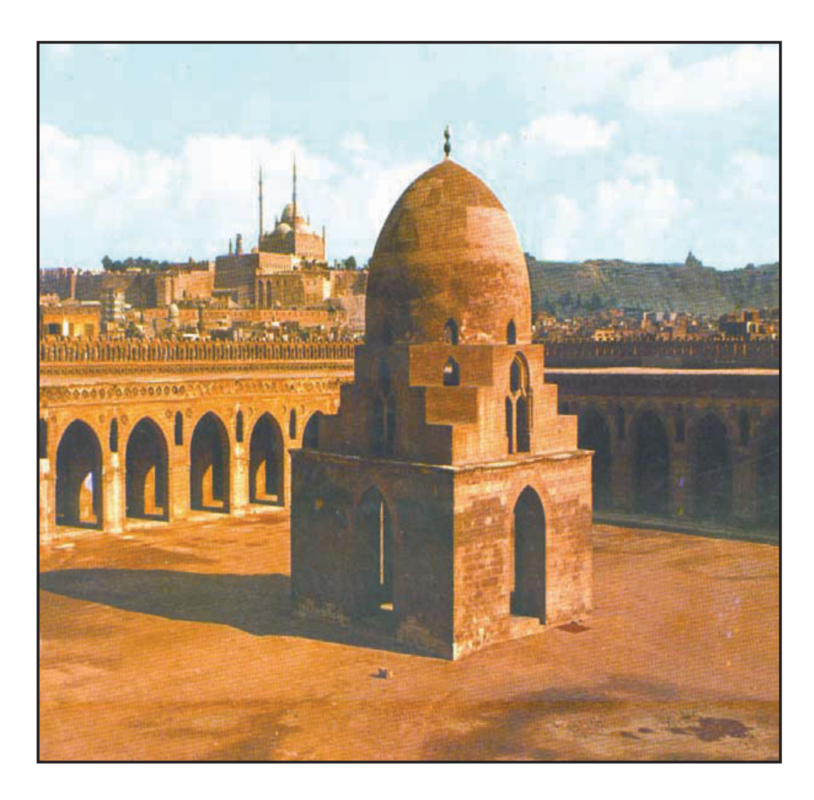
منظر عام لمدينة القدس في القرن ١٩ لديفيد روبرت.



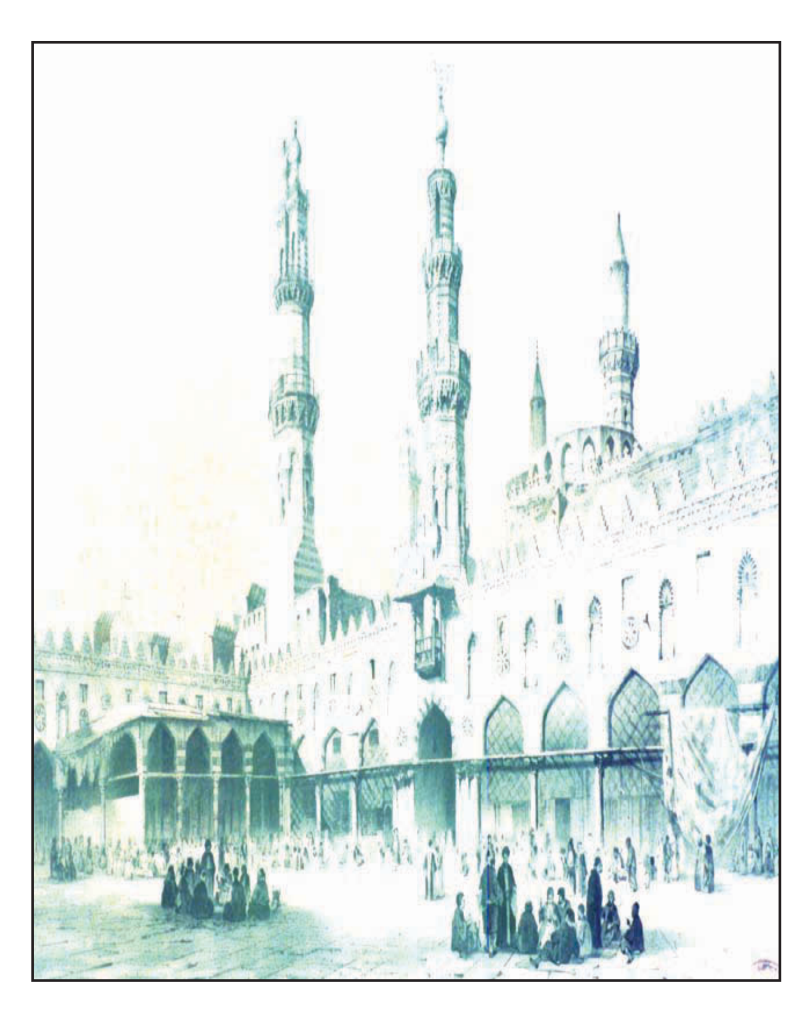
لوحة لشارع الدرب الأحمر في القاهرة - من أعمال أوين كارتر.



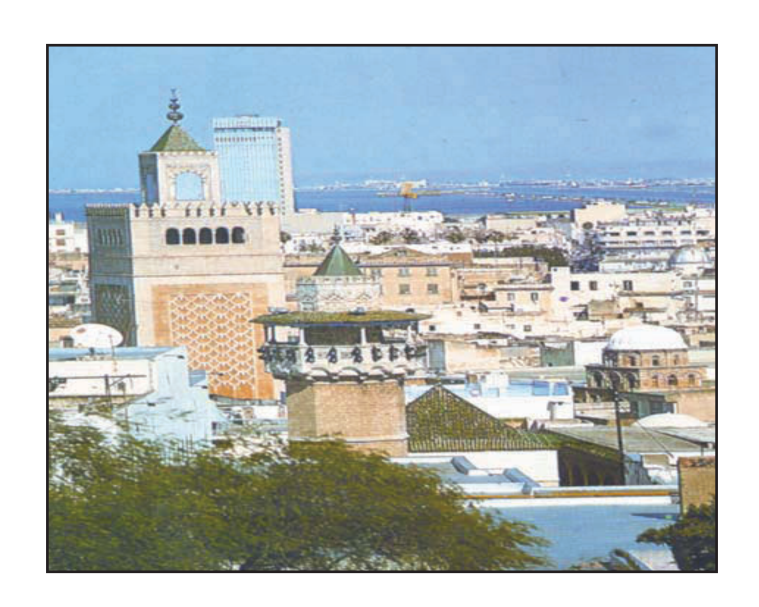
المسجد الأقصى بمدينة القدس.



صحن مسجد جامع ابن طولون.



الجامع الأزهر.



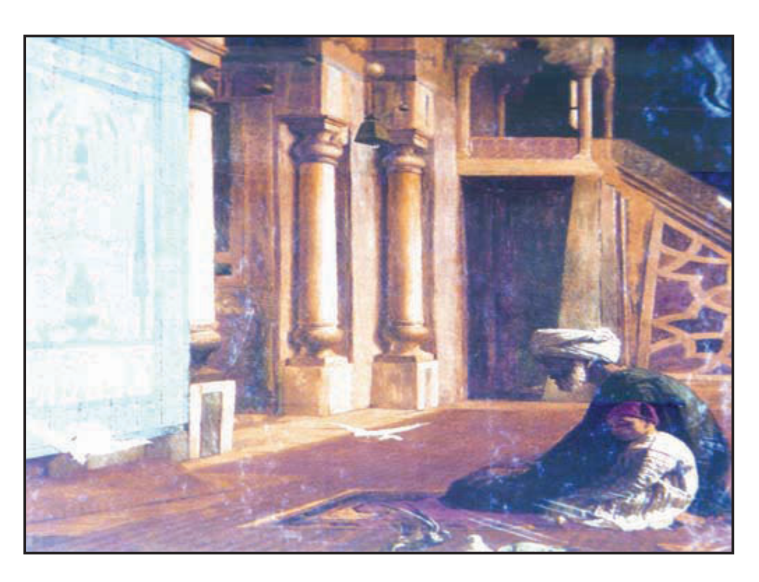
جامع الزيتونة في تونس.



مسجد نيوجيه في بكين.



الجامع الكبير بمدينة حيس اليمنية.



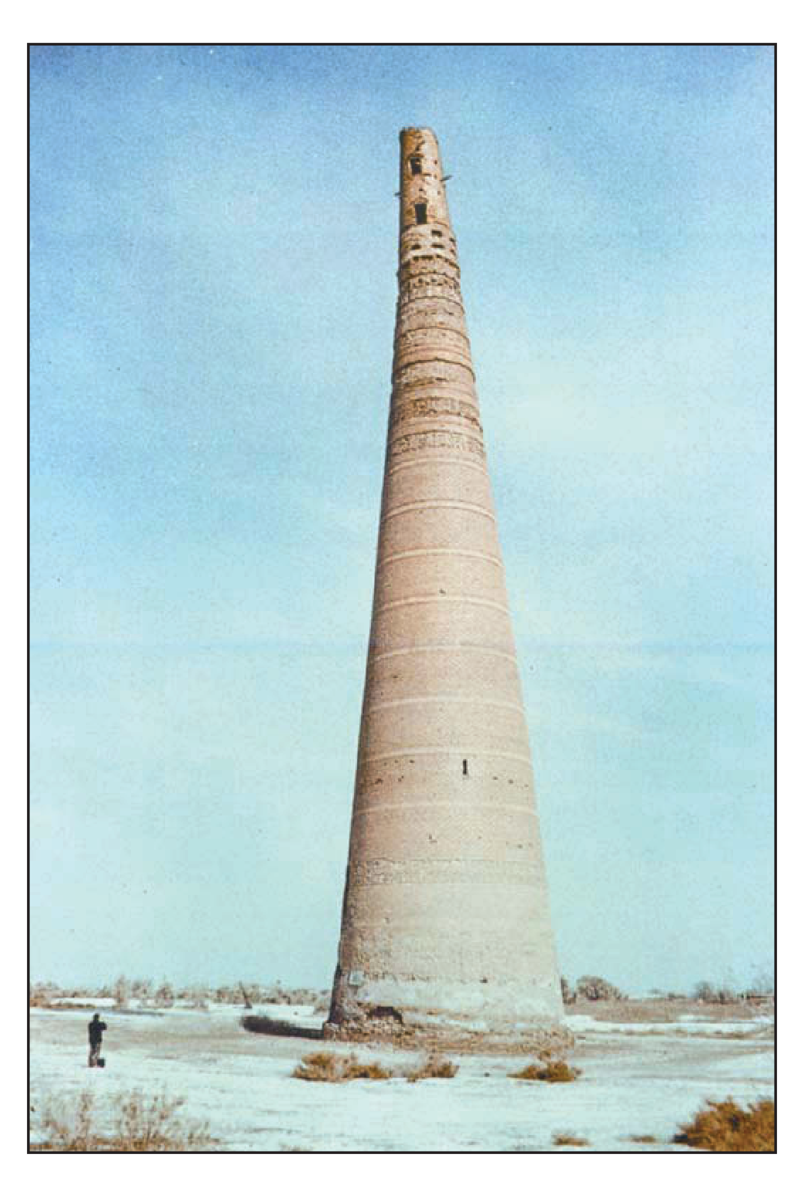
محراب الجامع الأزرق في القاهرة - لديفيد روبرت ١٨٣٠ م.



الجامع الكبير بمدينة حيس اليمنية لوحة زخرفية.



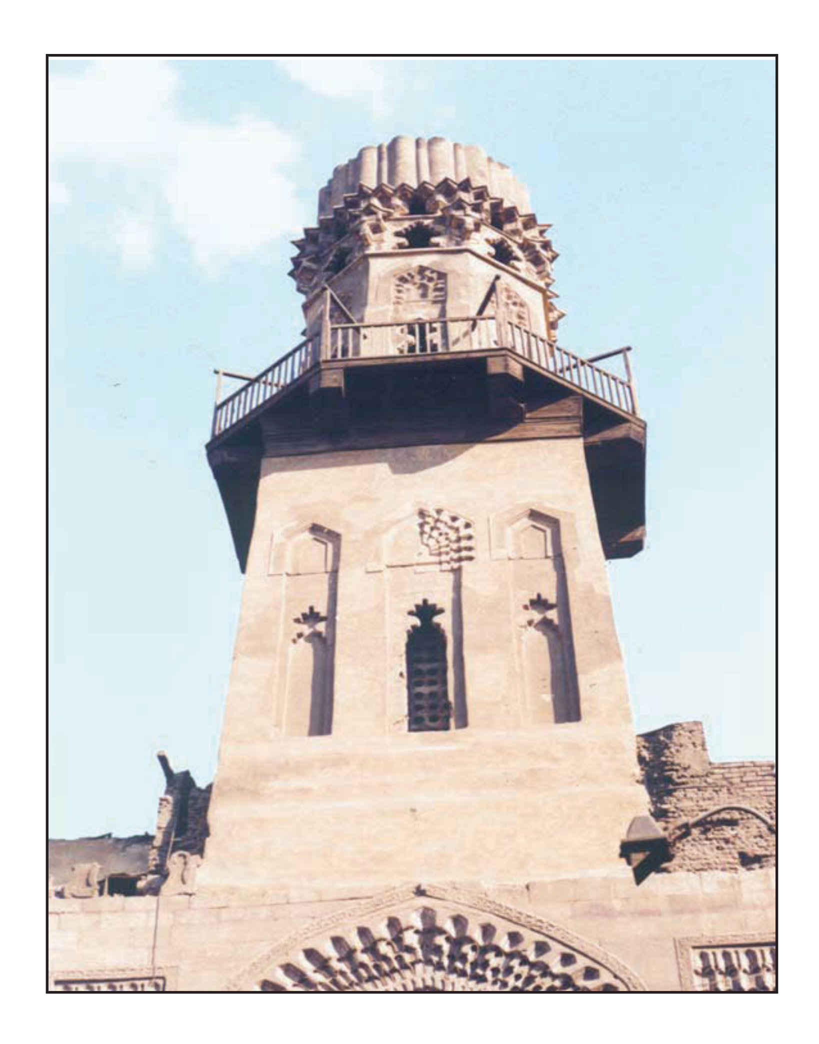
مئذنة سامراء في العراق.



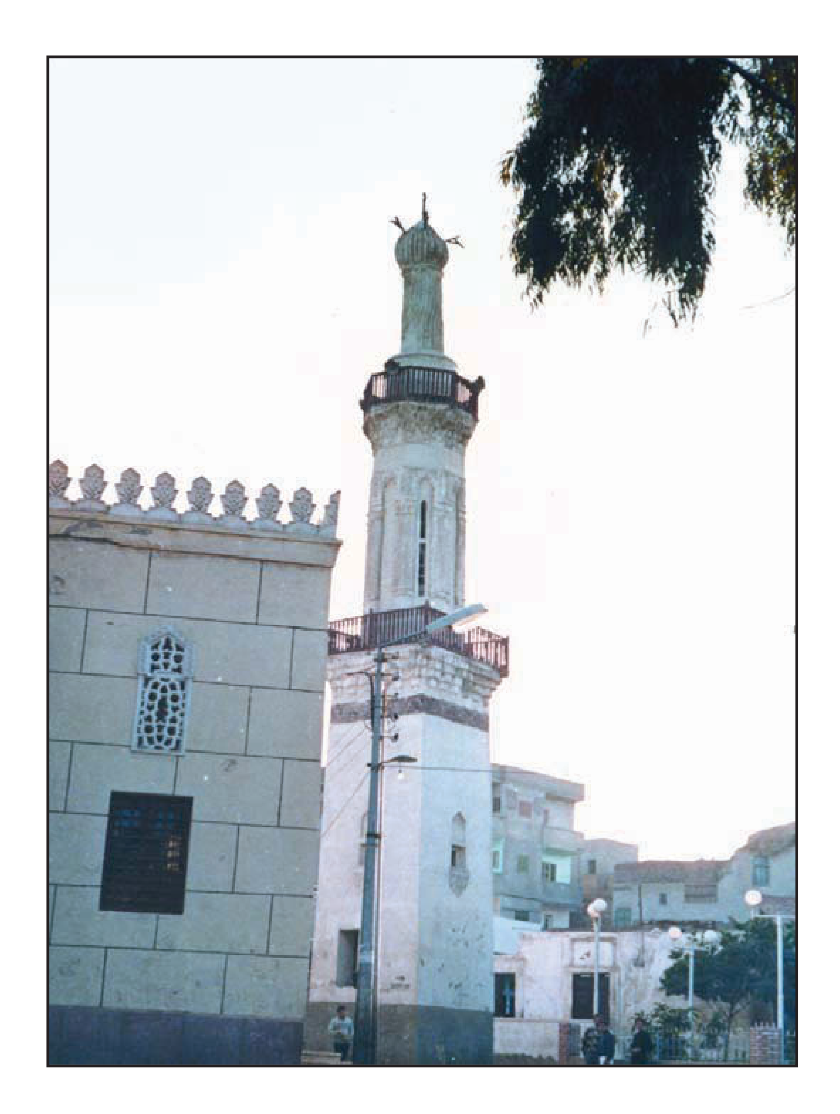
مئذنة كوتلخ تيمور في جورجنح بخوارزم.



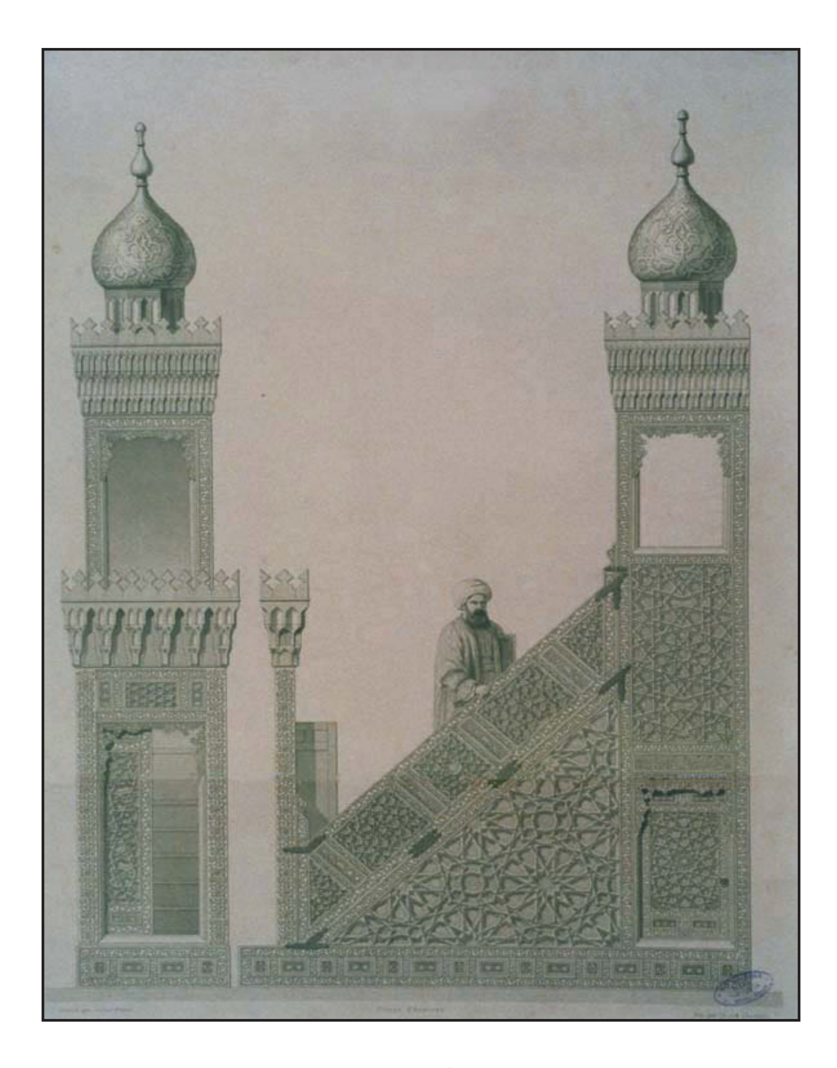
مئذنة مدرسة الإسكندرية بمدينة حيس اليمنية.



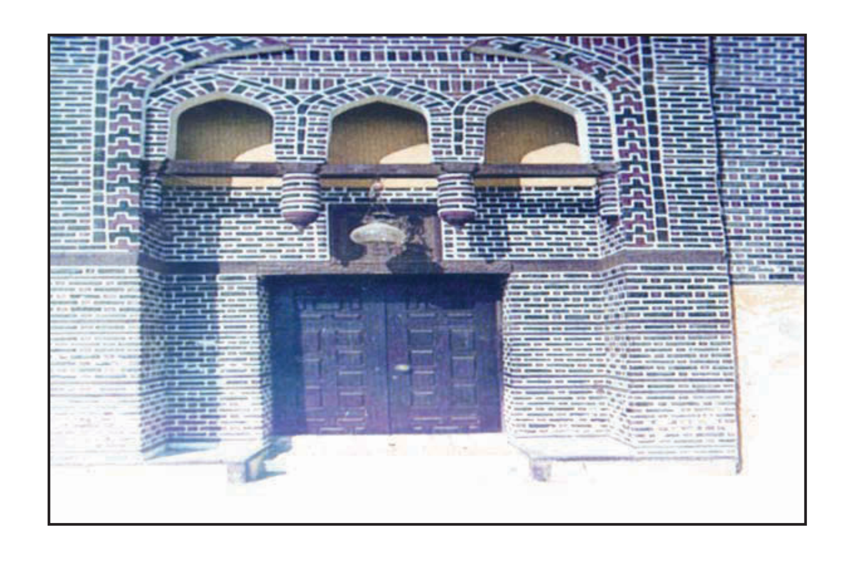
مئذنة المدرسة الصالحة في القاهرة.



مئذنة مسجد عبد الوهاب بمدينة مطوبس المصرية.



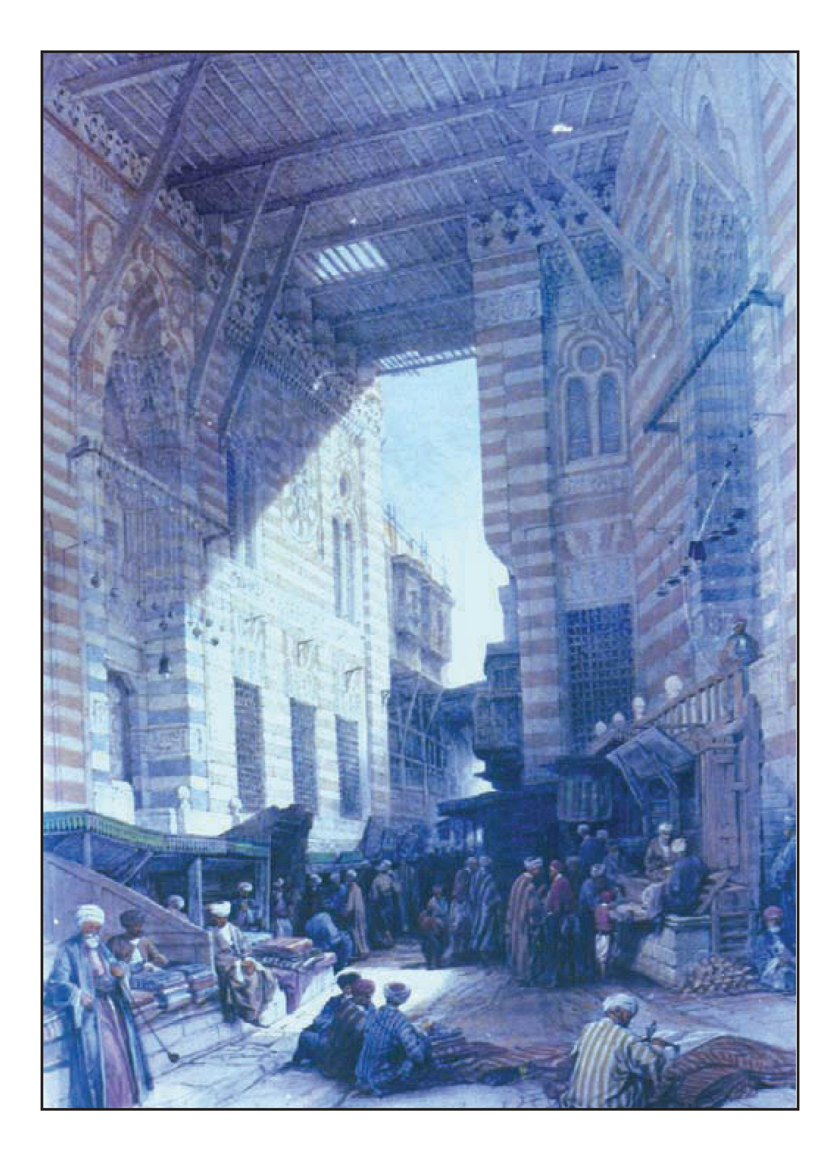
صورة منبر أحد مساجد القاهرة.



مدخل مسجد العباسي بمدينة رشيد المصرية.



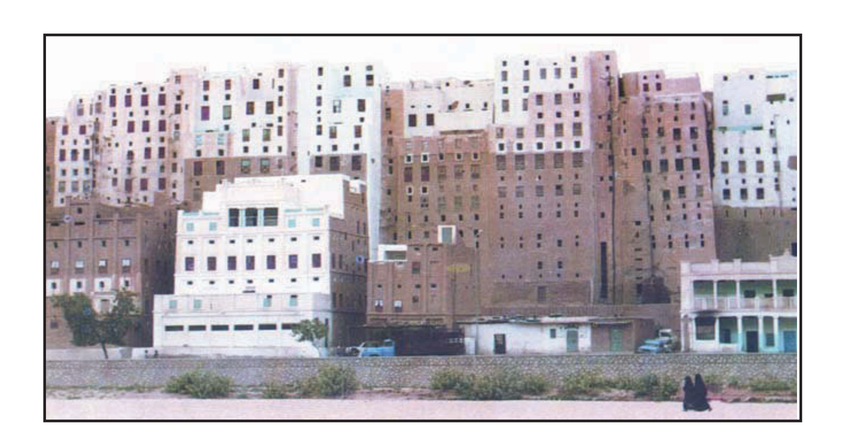
مدخل مسجد كلان في بخاري.



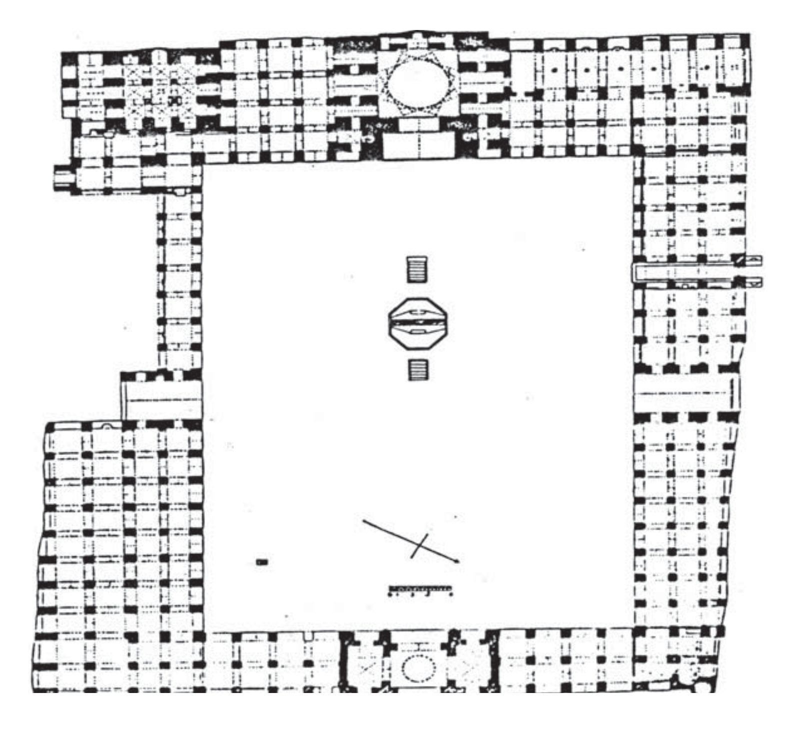
سوق الغورية بمدينة القاهرة.



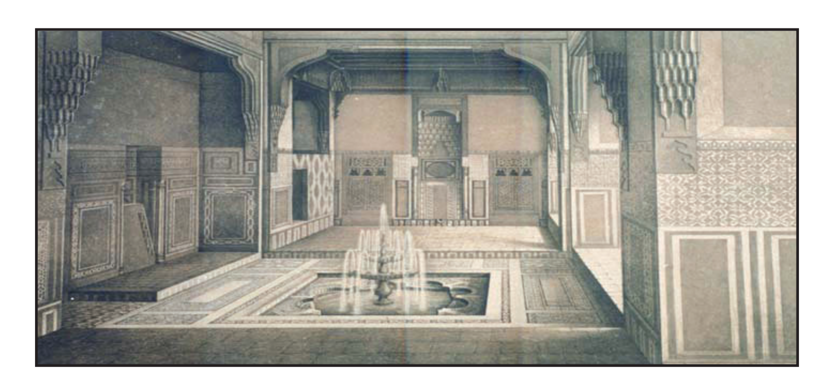
وكالة بازرعة.



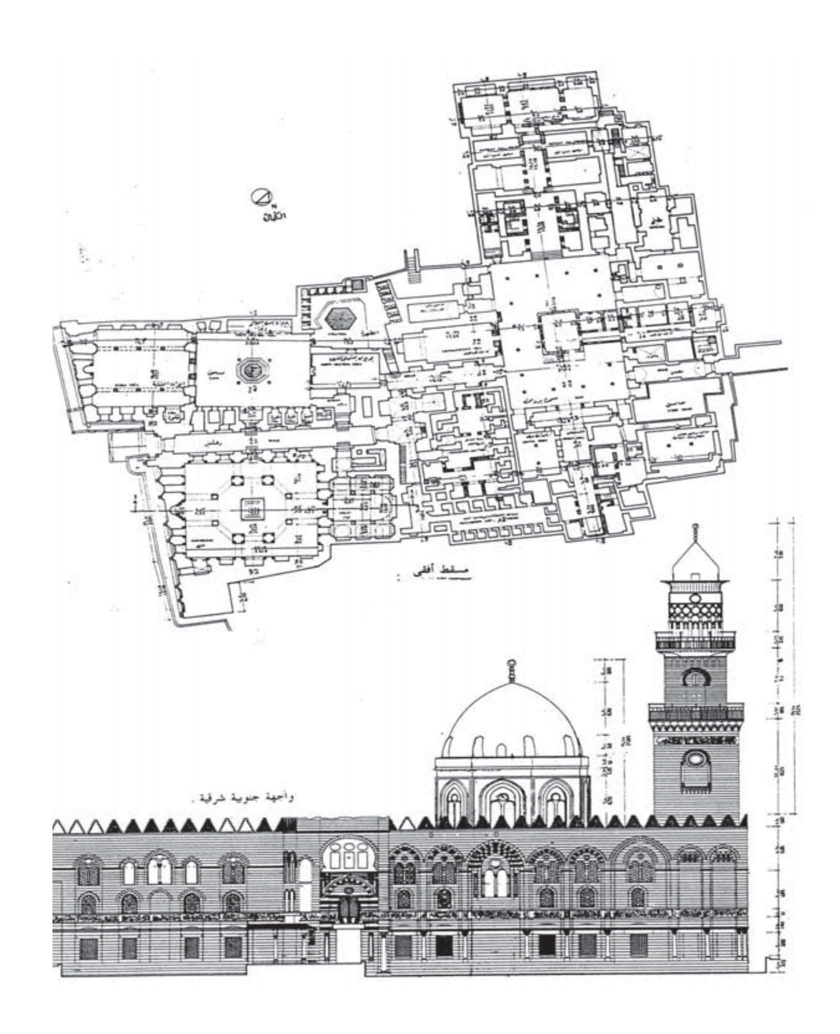
حي أثري قديم في مدينة شبام اليمنية.



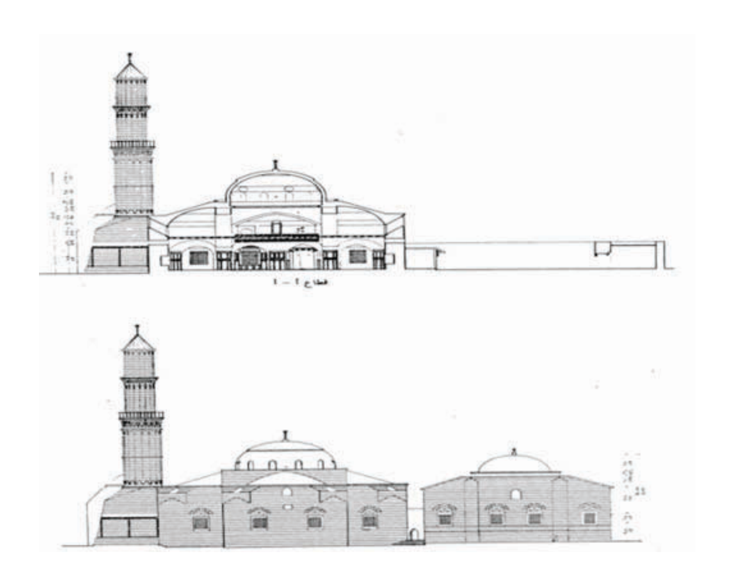
كرمان مسجد مالك - مسقط أفقي.



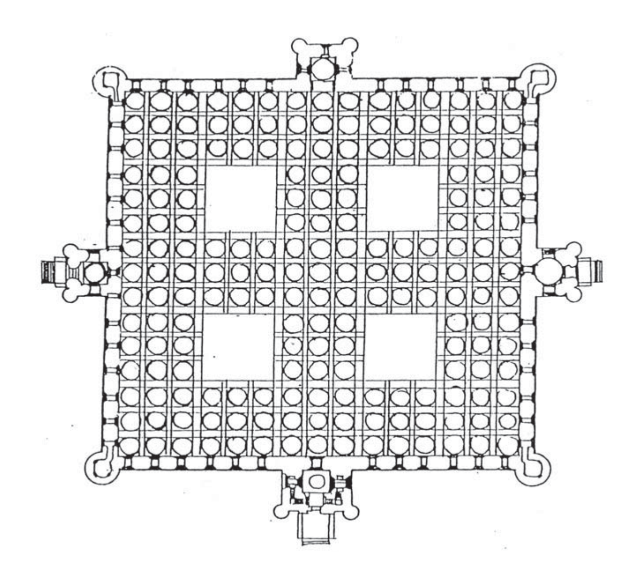
قاعة في أحد المنازل الإسلامية.



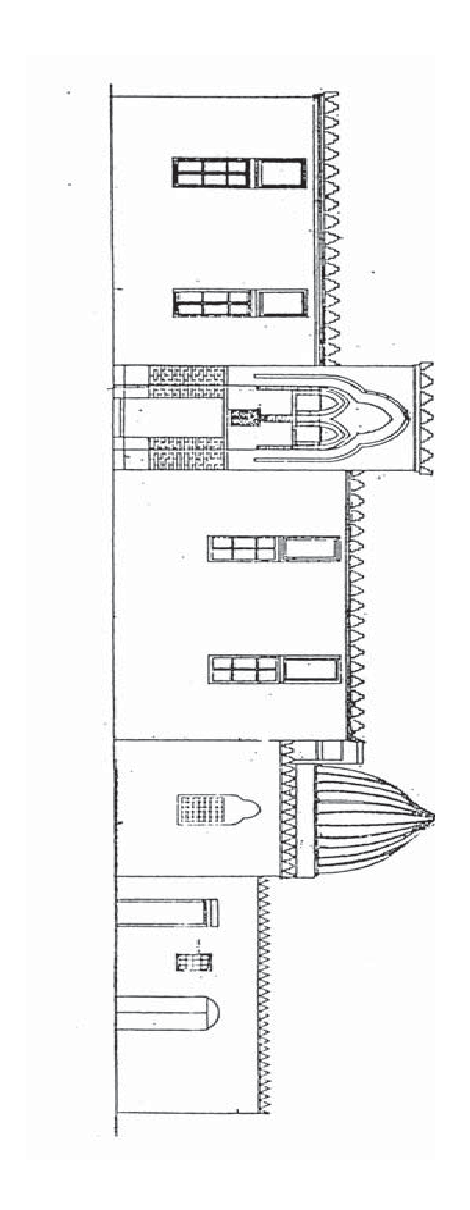
مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون بالقاهرة.



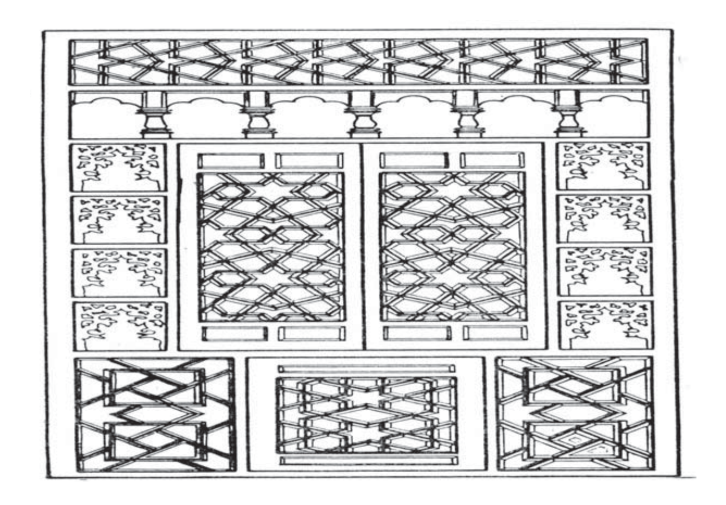
جامع سليمان باشا في قلعة صلاح الدين بالقاهرة.



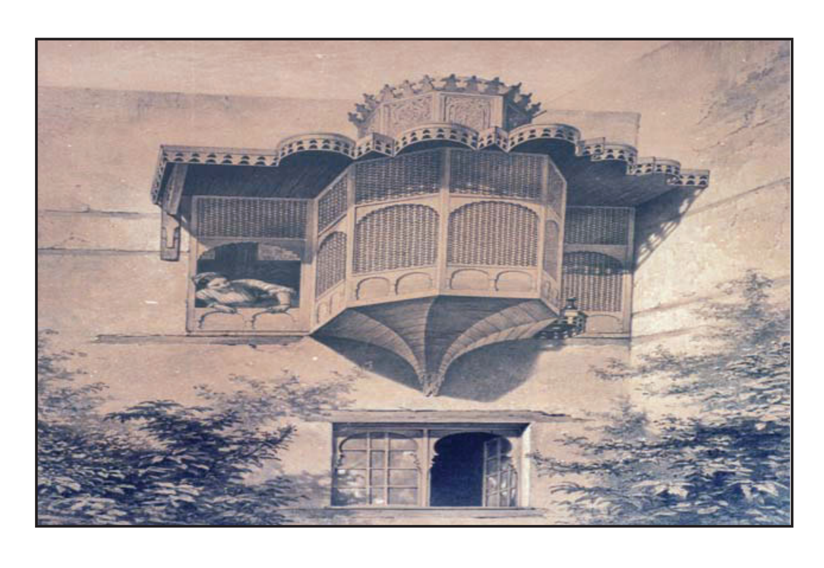
مسقط أفقي لمسجد خيركي (٧٥٢هـ /١٣٥٢م) دلهي - الهند.



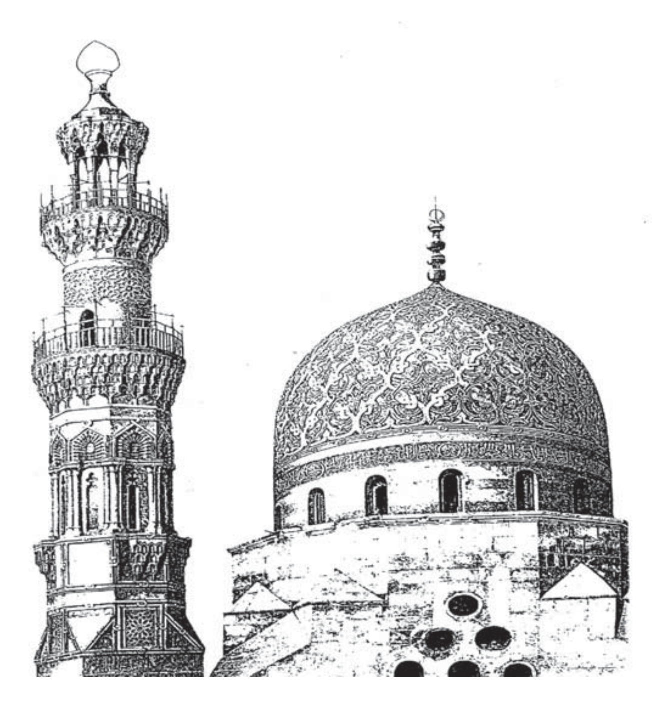
واجهة جامع العمري مدينة فوة في مصر.



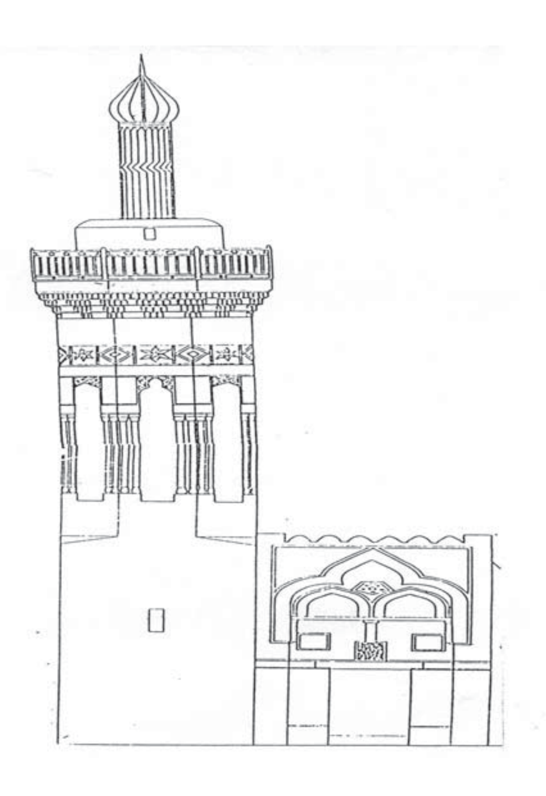
مشربية منزل الأمصيلي - من عمائر رشيد الأثرية.



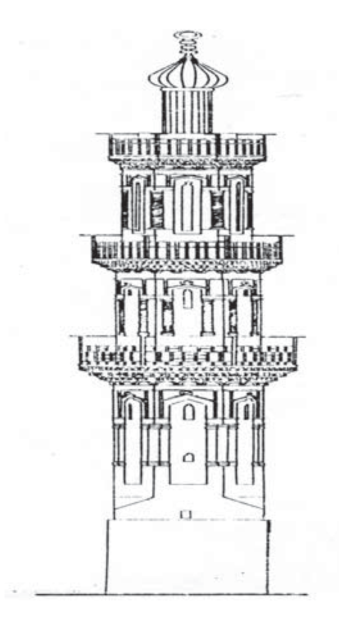
مشربية في أحد منازل القاهرة.



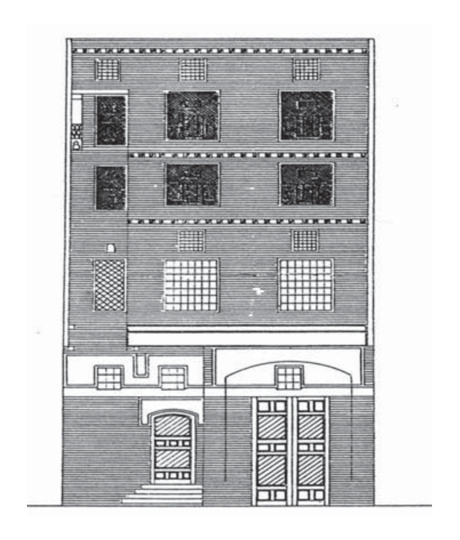
قبة ومئذنة مدرسة خاير بك بالقاهرة.



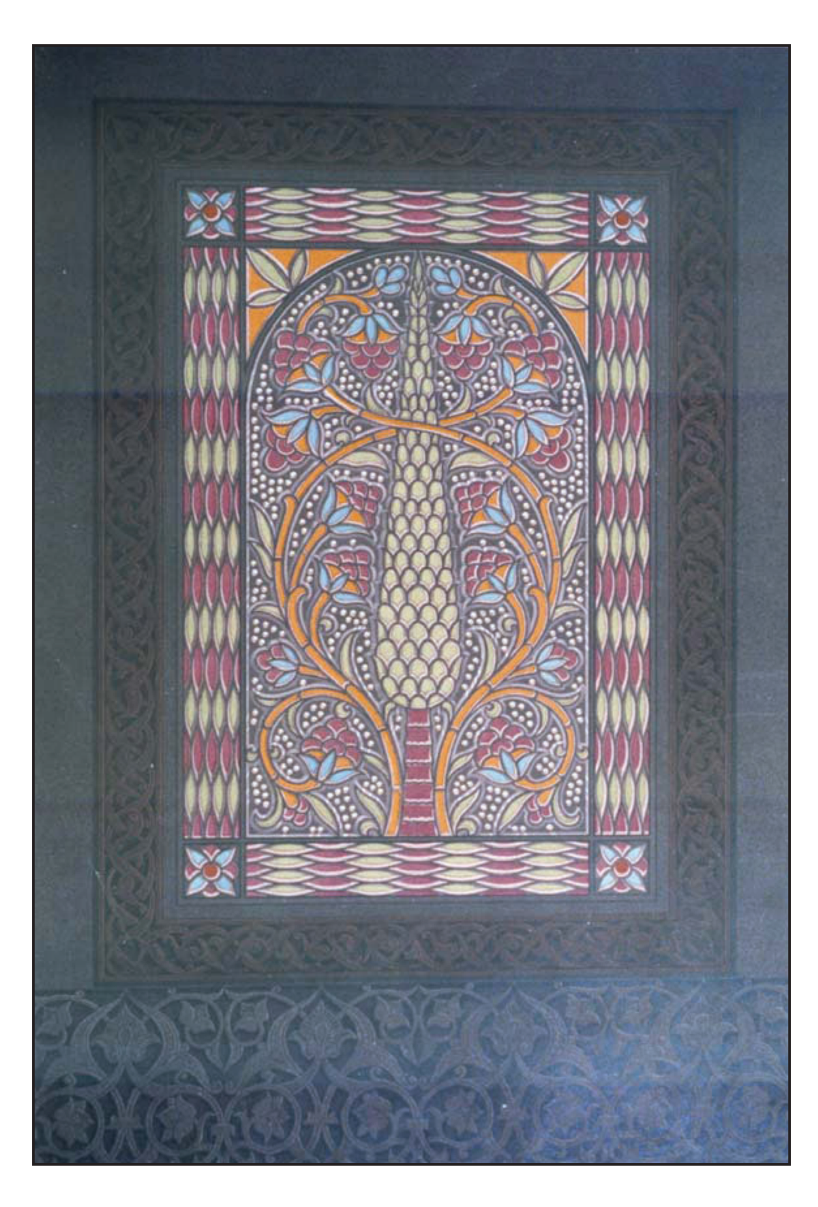
مدخل ومئذنة مدرسة حسن نصر الله بمدينة فوة المصرية.



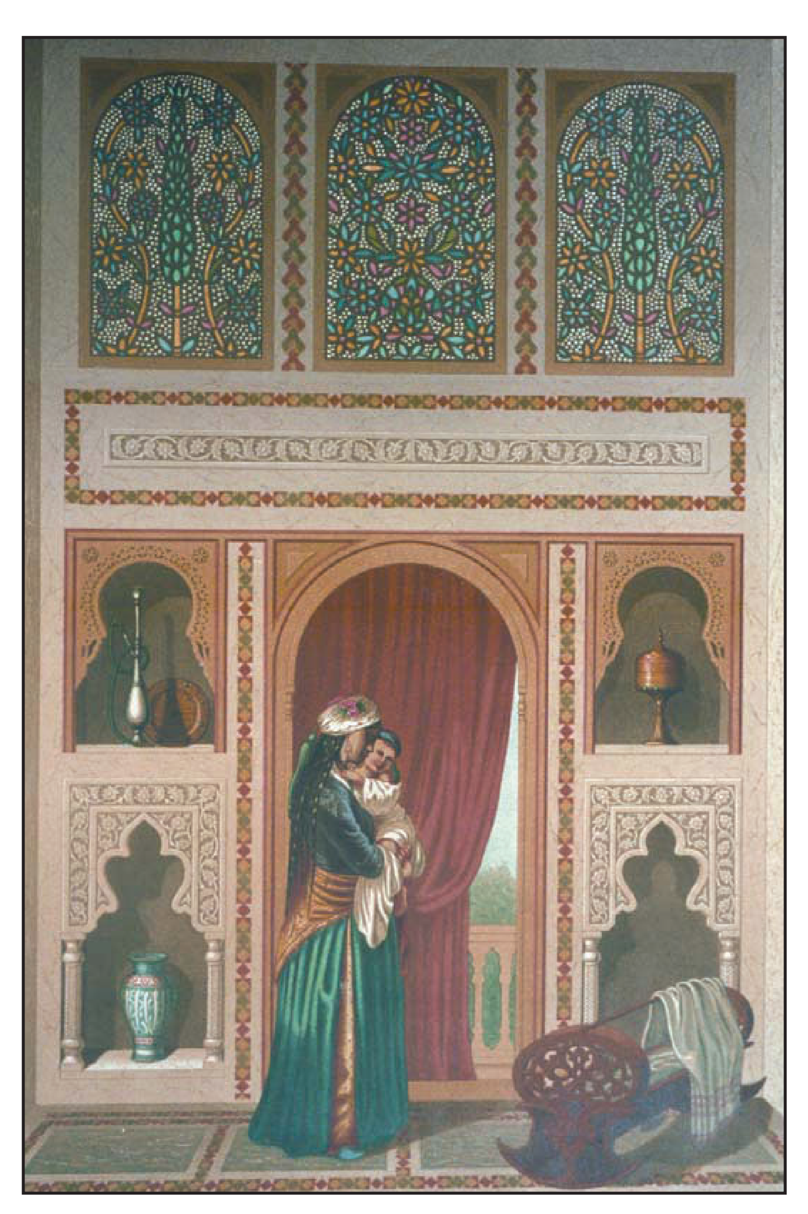
مئذنة مسجد زغلول بمدينة رشيد المصرية.



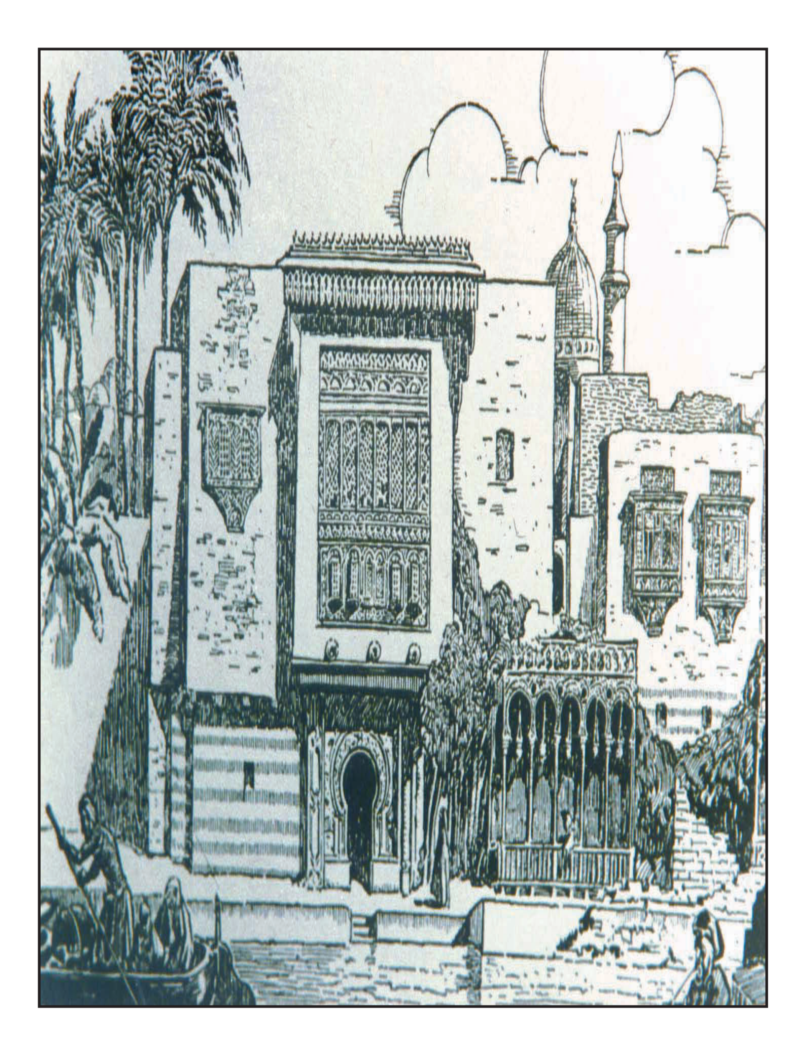
منزل ثابت الأثري بمدينة رشيد.



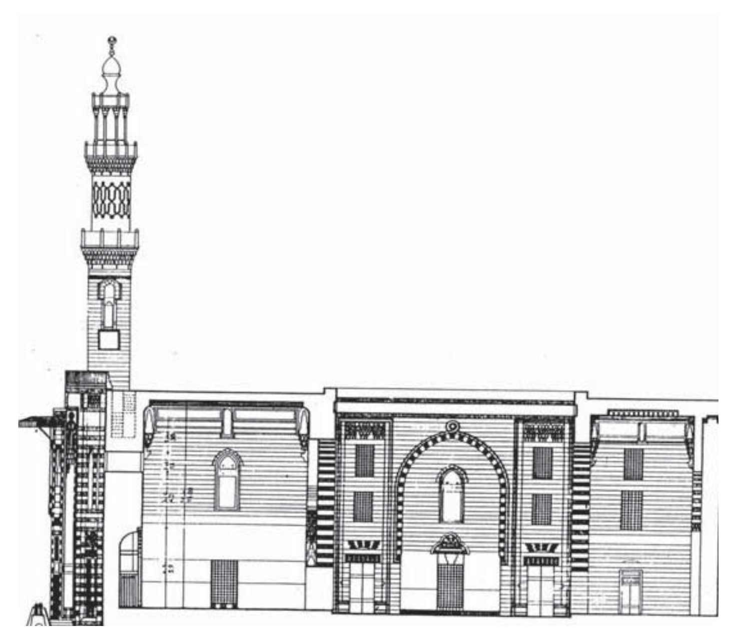
شمسية في أحد منازل القاهرة.



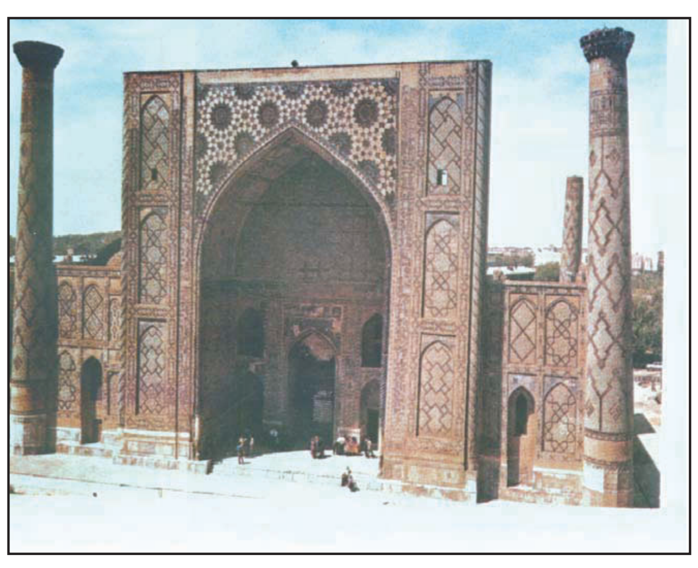
جانب من قاعة في أحد منازل القاهرة.



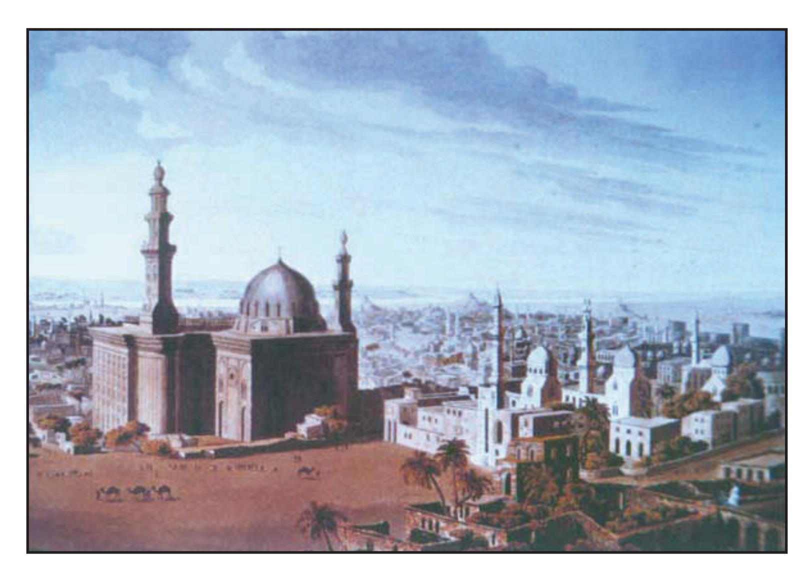
أحد منازل القاهرة المطلة على الخليج المصري .



مدرسة الأشرف برسباي في القاهرة.



مدرسة ألغ بيك في سمرقند.



مدرسة السلطان حسن بالقاهرة.



صحن مدرسة السلطان حسن بالقاهرة.



مدرسة السلطان قايتباي بالقاهرة.



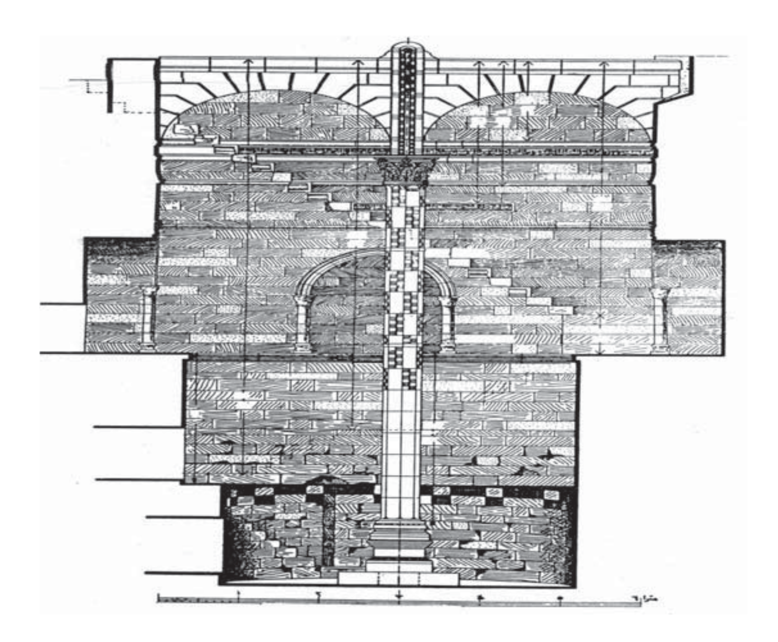
البيمارستان المؤيدي بالقاهرة.



البيمارستان المنصوري بالقاهرة.



حمام عزوز بمدينة رشيد.



مقياس النيل المصري - قطاع رأسي.



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن. ________________________

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري. ________________________

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي. ________________________

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني. ________________________

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي ________________________

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير ________________________

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض ________________________

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد ________________________

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة ________________________

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

د. محمد إقبال عروي ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني

د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعري).

الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة.

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. د/ زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التراث العمراني للمدينة الإسلامية

د. خالد عزب

نـهــر متعــددد.. متـجــدد

هــذا الكتــاب

مثلت المدينة الإسلامية صورة صادقة للحضارة الإسلامية مازالت بقاياها قائمة إلى الآن، نراها متناثرة في العديد من المدن الإسلامية ...

ويأتي هذا الكتاب ليرصد ملامح المدينة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ ومكوناتها وحاضرها ومستقبلها، وذلك في مباحث أبرزت فيها تراث هذه المدن وخصائصها، وكيفية توظيفه في تخريج مهندس المستقبل وفي تربية النشء...

إنه محاولة للربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، مبرزًا من أين انطلق الماضي؟! ومبينًا نكبة الحاضر؟ ومثيرا تساؤلات عديدة حول المستقبل؟

إن هذه النظرة الشمولية للمدينة الإسلامية وتراثها الحضاري الإسلامي هي الوحيدة الكفيلة بتحقيق الرؤية الشاملة للمجتمع ومدنه، تلك الرؤية التي تتطلبها جسامة المسؤولية الملقاة على عاتق المفكرين والمخططين والمهندسين المسلمين في هذا المنعطف التاريخي الحاسم...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

www.islam.gov.kw/thaqafa